[مفاتيح القرآن !]

قال اهل العلم: المقدمات مفاتيح الكتب، من حرمها حرم الصواب وحاد عن اللاحب .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القائل {وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا} ، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد القائل [أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ !] متفق عليه ؛ أما بعد:

فإن لكل شيء مفتاح إليه، منه يولج وبه تفتح مغاليقه، وقد جعل الله مفتاح القرآن "سورة الفاتحة" فمنها يصدر القرآن وإليها تعود جميع معانيه ولذلك سماها رسول الله (أم القرآن) ! ، فالفاتحة هي خارطة القرآن التي تكشف لك عن "مقاصده" التي تتنوع صور عرضها فيه إلا أن هذه الصور العديدة كلها ترجع إلى شيء واحد وهو "المفاتيح" الموجودة في هذه السورة العظيمة، ومن هنا أشار الاستاذ محمد عبدالله دراز في كتابه [النبأ العظيم] أنه لولا الفاتحة لما فهمنا القرآن !، ولذلك كانت هي أعظم سُوَرِهِ على الإطلاق حيث بنيت معانيه كله عليها حتى سماها إبن عباس رضي الله عنه [أساس القرآن]، وروى الأعمش عن إبن مسعود رضي الله عنه أنه قليل له:لم لم تكتب الفاتحة في مصحفك؟ قال: [لو كتبتها لكتبتها أول كل سورة، وإكتفيت بحفظ المسلمين لها عن كتابتها]،

ومن عجائبها ما قيل من انها نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين ب"مكة" و "المدينة" تشريفا لها وتعظيما لشأنها !!

وقد يسر الله لي حين إنقطعت عن الكتب -غير كتاب الله- تدبر هذه السورة العظيمة وطول الفكرة فيها ليلا ونهارا وعرض القرآن عليها مرارا، فوجدتها قد حوت (سبعة مفاتيح) إليها يرجع القرآن كله، فإستعتن بالله في الكلام عنها وبيانها للناس فكان هذا الكتاب الذي هو احب ما كابت إلي، فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وأسأله سبحانه أن ينفع به ويجعله ذخرا لنا يوم نلقاه إنه جواد كريم .

المفتاح الأول .. (التعريف بالله) !

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ} [الفاتحة: ١]

-مكانة توحيد الأسماء والصفات-

بهذه الكلمات العظيمة إفتتح الله هذه السورة الكريمة ليبين أن أعظم وأجل مقصد من مقاصد القرآن هو: التعريف بأسماء الله وصفاته! ، قال

قوام السنة الأصفهاني رحمه الله [قال بعض العلماء: أول فرض فرضه الله على خلقه معرفته ، فإذا عرفه الناس عبدوه قال تعالى {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ}] ، [فلا يزال القلب في أعظم القلق والإضطراب حتى يخالط الإيمان بأسماء الله وصفاته وتوحيده وعلوه على عرشه وتكلمه بالوحي بشاشة قلبه] الروح لإبن القيم: ٢٧١ ؛ ومن هنا كان هذا الأمر هو أول ما يسأل عنه العبد في قبره ولذلك هو أول الأصول وأعظمها قال الإمام محمد بن عبدالوهاب [فإذا قيل لك: ما الاصول الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها؟ فقل: معرفة العبد ربه ، ودينه ، ونبيه صلى الله عليه وسلم] "رسالة ثلاثة الأصول" ، وفي الحديث [لا يدخل الجنة أحد إلا بجواز: بسم الله الرحمن الرحيم !] رواه الطبراني ، قال إبن القيم رحمه الله [لا سعادة للعباد ولا صلاح لهم ولا نعيم إلا بأن يعرفوا ربهم ، ويكون هو وحده غاية مطلوبهم ، والتعرف إليه قرة عيونهم ، ومتى فقدوا ذلك كانوا أسوأ حالا من الأنعام ، وكانت الأنعام أطيب عيشا منهم في العاجل وأسلم عاقبة في الآجل] مختصر الصواعق: ٤٧/١ ، [فبحسب معرفة العبد بربه يكون إيمانه ، فكلما إزداد معرفة بربه إزداد إيمانه وكلما نقص نقص ، وأقرب طريق إلى ذلك تدبر صفاته وأسمائه في القرآن] "تفسير السعدي: ٢٤/١" ، [فأي شيء عرف من لم يعرف الله ورسله؟! ، وأي حقيقة أدرك من فاتته هذه الحقيقة!! ، وأي علم أو عمل حصل من فاته العلم بالله والعمل بمرضاته ومعرفة الطريق الموصل إليه وما له بعد الوصول إليه] "هداية الحيارى لإبن القيم: ٥٩١" .

وإعلم رحمك الله أن (تحقيق توحيد الأسماء والصفات) لا يكون بمجرد "حفظ ألفاظها" أو "معرفة القواعد" التي يقررها أهل العلم في هذا الباب في الرد على ما أحدثه أهل البدع فيه - الأمر الذي يظن البعض أنه إن قرره وأقر به فقد بلغ المنتهى وحقق الغاية في توحيد الأسماء والصفات!- ، إن توحيد الأسماء والصفات هو أساس كل علم وهدى والإخلال به هو أساس كل شر وضلالة حتى قيل لجعفر الصادق: ما بالنا ندعو ولا يستجاب لنا؟ فقال [لأنكم تدعون من لا تعرفون]! "إيقاظ أولي الهمم العالية في إغتنام الأيام الخالية" فجعل سبب عدم إستجابة الدعاء: الجهل بأسماء الله وصفاته .

بل إن مراتب الأشياء في دين الله تتفاوت بقدر تعلقها بهذا التوحيد !!*[وكشف الغطاء عن هذه المسألة أن يقال: إن الله عز وجل أرسل رسله وأنزل كتبه وخلق السماوات والأرض ليعرف ويُعبد ويُوحد ويكون الدين كله له والطاعة كلها له والدعوة له كما قال تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنّ وَالْإِنسَ إِلّا لِيَعْبُدُونِ} -قال الزهري: ما عبد الله بمثل العلم- وقال تعالى {وَمَا خَلَقْنَا السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلّا بِالْحَقّ} وقال تعالى {اللّهُ الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلموا أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلماً} وقال تعالى {جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنّاسِ وَالشّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلموا أَنّ اللّهَ يَعْلم مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنّ اللّهَ بِكُلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}، فأخبر سبحانه أن القصد بالخلق والأمر: أن يعرف بأسمائه وصفاته ويعبد وحده لا يشرك به وأن يقوم الناس بالقسط وهو العدل الذي قامت به السماوات والأرض كما قال تعالى {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالميزَانَ لِيَقُومَ النّاسُ بِالْقِسْطِ} فأخبر سبحانه أنه أرسل رسله، وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل، ومن أعظم القسط "التوحيد" بل هو رأس العدل وقوامه و{إِنّ الشّرْكَ لَظُلم عَظِيمٌ} فالشرك أظلم الظلم والتوحيد أعدل العدل فما كان أشد منافاة لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر وتفاوتها في درجاتها بحسب منافاتها له وما كان أشد موافقة لهذا المقصود فهو أوجب الواجبات وأفرض الطاعات، فتأمل هذا الأصل حق التأمل واعتبر به تفاصيله، تعرف به أحكم الحاكمين وأعلم العالمين، فيما فرض على عباده وحرمه عليهم وتفاوت مراتب الطاعات والمعاصي فلما كان الشرك بالله منافياً بالذات لهذا المقصود وكان أكبر الكبائر على الإطلاق وحرم الله الجنة على كل مشرك وأباح دمه وماله لأهل التوحيد وأن يتخذوهم عبيداً لهم لما تركوا القيام بعبوديته وأبى الله سبحانه أن يقبل من مشرك عملاً أو يقبل فيه شفاعة أو يستجيب له في الآخرة دعوة أو يقيل له فيها عثرة فإن المشرك أجهل الجاهلية بالله حيث جعل له من خلقه نداء وذلك غاية الجهل به

كما أنه غاية الظلم منه وإن كان المشرك لم يظلم ربه وإنما ظلم نفسه] "الداء والدواء: ١٥٨" *، فأعلى مراتب الدين "الإحسان" وهو [أن تعبد الله كأنك تراه -وهذه هي مرتبة الصديقية- ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك] متفق عله ، ولذلك -وهو مما يبين لك فقه الصحابه- لما سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن أعظم آية في كتاب الله؟ كان جواب أبي بن كعب رضي الله عنه: أنها آية الكرسي! وذلك أن آية الكرسي هي أطول آية في كتاب الله أفردت في الحديث عن أسماء الله وصفاته، فلما كان أبي بن كعب رضي الله عنه مبصرا هذه الحقيقة -وهي أن مراتب الأشياء إنما تتفاوت بقدر قربها وبعدها من هذا التوحيد وأن اعظم مقاصد القرآن تعريف الناس بربهم- علم أن هذه الآية هي أعظم آية في كتاب الله ففرح النبي صلى الله عليه وسلم منه بذلك وضرب على صدره وقال [والله ليهنك العلم أبا النذر!] ، قال إبن القيم [ولهذا كانت سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن لأنها أخلصت لوصف الرحمن تبارك وتعالى والثناء عليه] "زاد المعاد: ٦٦" .

-الجهل بالأسماء والصفات أساس كل شر-

وبالمقابل فالإخلال بتوحيد الأسماء والصفات هو أساس كل شر وضلال ومن هنا لما أراد الله أن يذكر وصفا جامعا لأهل الباطل رصفهم ب"سوء الظن" فقال {وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} و"ظن السوء" منشؤه الجهل بالأسماء والصفات! ، بل أخبر جل وعلا أن سبب شرك المشركين إنما هو جهلهم بأسمال الله وصفاته فقال {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ} ، قال إبن القيم رحمه الله [أركان الكفر أربعة: الكبر ، والحسد ، والغضب ، والشهوة ؛ ومنشأ هذه الأربعة من جهله بربه وجهله بنفسه! ، فإنه لو عرف ربه بصفات الكمال ونعوت الجلال وعرف نفسه بالنقائص والآفات لم يتكبر ولم يغضب لها ولم يحسد أحد على ما آتاه الله]

"الفوائد:١٧٧" ومن هنا كان أول ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي قوله تعالى {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ} ! *ومسألة "الإعجاز القرآني" كلها إنما تقوم على هذا الأصل: أي تأمل الكلام -كلام البشر وكلام رب البشر- للكشف عن نفس المتكلم به والتوصل من خلال ذلك إلى معرفة ان هذه النفس التي تكلمت بالقرآن يستحيل ان تكون نفسا بشرية!، ولذلك لما قرأ رسول الله صلي الله عليه وسلم على الوليد بن المغيرة وكان سفير قريش إليه أوائل سورة فصلت رجع إلى قومه فسألوه فقال [وماذا اقول؟! فوالله مافيكم رجل أعلم بالشعري مني ولا برجزه ولا بقصيده مني ولا باشعار الجن والله ما يشبه الذي يقول شيء من ذلك!]*.

-توحيد الأسماء والصفات هو أساس العلوم كلها-

إن (توحيد الأسماء والصفات) هو أساس العلوم كلها ، ومنزلة المرء عند الله بقدر مرتبته في تحقيق هذا التوحيد ومن هنا سأل إمام الموحدين إبراهيم الخليل ربه أن يريه كيف يحيي الموتى وسأله موسى الكليم أن ينظر إليه كل ذلك منهم -صلوات ربي وسلامه عليهم- طلبا للمراتب العليا في تحقيق توحيد الأسماء والصفات قال إبن القيم [وقد سأل إبراهيم الخليل ربه أن يريه إحياء الموتى عيانا بعد علمه بقدرة الرب على ذلك ليزداد طمأنينة ويصير المعلوم غيبا شهادة وقد روى الإمام أحمد في مسنده عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال (ليس المخبر كالمعاين) !] الداء والدواء: ٥١ ، وقد بين نبينا عليه الصلاة والسلام منزلته في هذا الباب وسيادته على الخلق فيه فقال [أَنا سيِّدُ ولدِ آدمَ يومَ القيامةِ ولا فَخرَ وبيدي لواءُ الحمدِ ولا فخرَ وما من نبيٍّ يومئذٍ آدمَ فمن سواهُ إلَّا تحتَ لوائي] رواه الترمذي ، فلواء الأنبياء الذي يجتمعون عليه يوم القيامة هو (لواء الحمد) -والذي هو التطبيق العملي لتوحيد الأسماء والصفات كما سيأتي بيانه- وإنما كان اللواء بيد نبينا عليه الصلاة والسلام لأنه أعظم الخلق تحقيقا لهذا التوحيد! .

وقد إشتدت عناية السلف رحمهم الله بهذا الباب وكثر تصنيفهم فيه حتى أنهم إذا أطلق لفظ (التوحيد) عندهم فإنما ينصرف إلى "الأسماء" و "الصفات" إذ هو الأساس وباقي أنواع التوحيد إنما هي من آثار أسماء الله وصفاته ، وهذه المسألة تفتح لك بابا عظيما في معرفة قدر السلف وفضل علومهم الأمر الذي يزهد فيه كثير من أهل زماننا لقلة العلم وإنتشار الجهل وضعف العقول والإغترار الكاذب ولا حول ولا قوة إلا بالله .

-حقيقة توحيد الأسماء والصفات-

هذا ولتعلم أن (تحقيق توحيد الأسماء والصفات) يكون بأمرين:-

1- التفقه في أسماء الله وصفاته تفقها حقيقيا يورث "الحب" و "التعظيم" الذين هما قاعدتا التوحيد في القلب .
2- التبصر بآثارها في الوجود "الشرعية" و "القدرية" .

قال إبن القيم رحمه الله [والطمأنينة إلى أسماء الرب تعالى وصفاته نوعان: طمأنينة إلى الإيمان بها وإثباتها وإعتقادها ، وطمأنينة إلى ما تقتضيه وتوجبه من آثار ، فهذه طمأنينة إلى أحكام الصفات وموجبها وآثارها في العالم وهي قدر زائد على الطمأنينة بمجرد العلم بها وإعتقادها !] "الروح: ٢٧٩" ؛ فهذا هو أساس العلم الذي قال الله فيه {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ} أي العلماء بأسمائه وصفاته وبأفعاله في خلقه -تشريعه وقدره- التي هي ظل لأسمائه وصفاته ، وهذا هو المقصود ب(ذكر الله) الذي جاءت النصوص بالثناء على أهله لا مجرد نطق اللسان دون فهم المعنى وتنزيله على الواقع والعمل بمقتضاه -كما هو دين المرجئة- إنما هو قول وعمل - كما يقرر أهل السنة- *وبذلك تعلم أن الإنتساب ل"السنة" ليس مجرد دعوى باللسان أو مجرد مسائل نظرية تقرر في الذهن ولا اثر لها في الواقع، وإنما هو منهج متكامل يدخل في كافة شؤون الحياة، فإذا فهمت ذلك جيدا فتح لك الباب في فهم كلام السلف عن "غربة السنة" -في زمانهم!- وقلة أهلها العاملين بها وإن كثر الادعياء .. ولله الامر من قبل ومن بعد* ، قال تعالى مبينا صفات "أهل

الذكر" الذين فيهم نزلت نصوص الثناء {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} فذكرهم لله هنا بمعنى تفكرهم في أسمائه وصفاته من خلال ربطها بالواقع وإنزالها عليه والإرتقاد بذلك في مراتب العبودية "علما" -ربنا ما خلقت هذا باطلا- و"عملا" -بالدعاء: فقنا عذاب النار-، فهذا إبراهيم الخليل عليه السلام حين ألقي في النار قال [حسبنا الله ونعم الوكيل] عالما معناها موقنا بها عاملا بمقتضاها فقد روى البيهقي عن بشر بن الحارث أنه قال [لَمَّا رُفِعَ إِبْرَاهِيمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِيُلْقَى فِي النَّارِ عَرَضَ لَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: يَا إِبْرَاهِيمُ هَلْ لَكَ مِنْ حَاجَةٍ؟ قَالَ: أَمَّا إِلَيْكَ فَلَا حَاجَتِي إِلَى اللهِ رَبِّي] ! قال النهرجوري [كَانَ ذهابه بِاللهِ مِنَ اللهِ إِلَى اللهِ بِلَا وَاسِطَةٍ، وَهُوَ مِنْ عَلَامَاتِ التَّوْحِيد] .

-الأسماء والصفات هي سر فقه "مقاصد الشريعة"-

وهذا فاروق الأمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إنما بلغ هذه المنزلة في دين بهذا الأمر -العلم بالله والفقه في أسمائه وصفاته- ، فقد روى عنه مسلم في صحيحه أنه قال [وَافَقْتُ
رَبِّي فِي ثَلَاثٍ، فِي مَقَامِإِبْرَاهِيمَ، وفِي الحِجَابِ، وفِي أُسَارَى بَدْرٍ] فهو رضي الله عنه علم حكم الله في ذلك كله قبل أن ينزل به الوحي! ، وما ذاك إلا من خلال معرفته بأسماء الله وصفاته وما يليق به جل وعلا وبشرعه الذي هو أثر لهذه الأسماء والصفات ، فهو جل وعلا أمر بإتخاذ مقام إبراهيم مصلى لخلته له وجعله إياه للناس إماما ، وأمر بالحجاب لأنه غيور وفي الحديث [لا أحدَ أغْيَرُ مِنَ اللهِ ، ولِذلِكَ حرَّمَ الفواحِشَ ، ما ظهرَ منها وما بطنَ ، ولَا أحدَ أحبُ إليه المدحُمِنَ اللهِ ، ولِذلَكَ مَدَحَ نَفْسَهُ ، ولَا أحدَ أحبَّ إليهِ العذرُ مِنَ اللهِ ، مِنْ أجلِ ذلِكَ أنزلَ الكتابِ ، وأرسلَ الرُّسُلَ] متفق عليه ، وأمر جل وعلا بقتل أسرى بدر لأنه منتقم شديد العقاب يبغض المشركين ويحب كل موطن فيه إغاظة لهم ونيل منهم ، وحرم الخمر لأنه حكيم يحب الحكمة ويبغض السفاهة ، وهكذا في سائر أحكام الشريعة فإن كل حكم منها ما هو أثر لإسم من أسمائه الحسنى

وصفاته العليا جل جلاله والتفقه في ذلك هو الذي يطلع العبد على أسرار الشريعة ومقاصدها فدرجة المرء في العلم بقدر فقهه في هذا الباب! ، وقد أثنى النبي صلى الله عليه وسلم على عمر بن الخطاب وشهد له برسوخ العلم ووصفه ب"العبقري" لشدة فقهه في هذا الباب ومن تأمل سيرته رأى ذلك جليا فإنه رضي الله عنه من أبصر الخلق في سنن الوجود -التي هي قدر الله- وفي أسرار الشريعة -التي هي حكمه- *تنبيه: اما ابو بكر الصديق رضي الله عنه فإنه سيد هذه الامة وأعلمها بالله بعد نبيها وأبصرها بشرعه واصدقها فراسه حتى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله عن الرجال، ولولا خشية الخروج عن المقصود لذكرنا من شواهد سيرته ما يبين فضله في هذا الباب وسبقه الناس فيه ولكن حسبك هنا أن تعلم: أن النبي صلى الله عليه وسلم شهد له ب"الصديقيه" التي هي اعلى مراتب العلم بالله بعد النبوة وسيأتي لذلك تفصيل حسن بإذن الله، وذكر عليه الصلاة والسلام انه لو وضع إيمان ابي بكر في كفة وزيمان الامة كلها في كفة لرجح ميزان ابي بكر، ويكفيك -كما قال عمر- ان تنظر موقفه يوم "الحديبية" وفي "حروب الردة" لتعرف سبقه اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الباب فضلا عمن بعدهم* .

ومثل ذلك يقال في سعد بن معاذ رضي الله عنه حين حكم في يهود بني قريظة "بحكم الله من فوق سبع سموات"، وما ذاك إلا لشدة تبصره في هذا الباب فقد بلغ فيه منزلة جعلت عرش الرحمن يهتز لموته فرحا بقدومه وجعلت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه جيء بسعد إليهم [قوموا لسيدكم]! إذ كما سبق أن منزلة المرء في دين الله وسيادته فيه بقدر مرتبته في تحقيق هذا التوحيد حتى أنه جاء في ذكر أدنى أهل الجنة منزلة أنه في أول دخوله لها [ينطلق يرمل في الجنة حتى إذا دنا من الناس رفع له قصر من درة فيخر ساجدا ، فيقال له: إرفع رأسك مالك؟ ، فيقول: رأيت ربي أو تراءى لي ربي! ، فيقال له: إنما هو منزل من منازلك] "رواه عبدالله بن الإمام أحمد في السنة والدارقطني في الرؤيا" فهذه هي مرتبته في هذا الباب!! *ومثل ذلك يقال في حديث المحرق نفسه!*.

وبعد كل ما سبق ..

لا عجب أن يفتتح الله كتابه الذي هو مصدر العلم والهدى ب{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ} بل ويجعلها مفتاحا لكل سورة فيه ليذكرنا في كل مرة أن أعظم مقاصد القرآن هو تعريف الناس بربهم ، وأن كل آية فيه إنما هي أثر من آثار هذه الأسماء الحسنى والصفات العلى .

و"الباء" في البسملة إما أن تأتي (للإستعانة) فيكون المعنى: أبدأ قراءتي مستعينا بأسماء الله على فهم ما أقرأ وعليه تكون الأسماء والصفات هنا و"سيلة" لفهم القرآن! ، وإما أن تأتي (للمصاحبة) فيكون المعنى: أبدأ قراءتي القرآن مستحضرا أسماء الله وصفاته مستصحبا إياها لأتفهمها منه وعليه فتكون الأسماء والصفات هنا هي "الغاية" التي يتوصل إليها من خلال القرآن! ، وكلا المعنيين صحيح فإن توحيد الأسماء والصفات وإن كان هو الغاية والمقصد الأعظم للقرآن كما سبق بيانه إلا أنه كذلك هو الوسيلة لفهم القرآن فلا سبيل لفهمه إلا من خلال ربطه بأسماء الله وصفاته ومن هنا نرى ربنا جل وعلا يختم كثيرا من الآيات بذكر بعض أسمائه وصفاته تعليلا لما سبق فيها من امر او خبر يقول الأستاذ الرافعي رحمه الله [بعض الأسرار الآلهية يبحث في العلم عنها، وبعضها يكون من الجلال والإشراق والسمو بحيث يبحث فيها عن العلم] "رسائل الاحزان" .

فتوحيد الأسماء والصفات منه المبتدأ وإليه المنتهى وفي ذلك معنى قوله تعالى {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} !! .

المفتاح الثاني .. (آثار الأسماء والصفات) !

{الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}

-فضائل الحمدلة-

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه [(الحمد لله) كلمة أحبها الله تعالى لنفسه ورضيها لنفسه وأحب أن تقال] ! ، وفي حديث الأسود بن سريع رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله ألا أنشدك محامدا حمدت بها ربي تبارك وتعالى؟ قال [أما إن ربك يحب الحمد] ! ؛ فالحمد عبادة الخلص من خلق الله وميدان السباق بينهم إذ الباب فيه مفتوح على مصراعيه لا يحده حد ولا تدركه غاية ، وقد كان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتنافسون في ذلك اعظم التنافس فعند ابن حبان عن رفاعة الزرقي رضي الله عنه قال: كنا يوما نصلي وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رفع رأسه من الركعة وقال (سمع الله لمن حمده) قال رجل وراءه: ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه! فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلاته قال [لقد رأيت بضعا وثلاثين ملكا يبتدرونها ايهم يكتبها اول]! ، وله ايضا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثهم أن عبدا من عباد الله قال: (يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك) فعضلت بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها فصعدا إلى الله فقال جل وعلا [أكتباها كما قال عبدي حتى يلقاني فأجزيه بها] !!.

-علاقة الحمد بالرحمة-

بل إن (الحمد لله) هي أول كلمة عرفتها البشرية وأول عبادة صدرت منها تجاه رب العالمين! ففي حديث خلق آدم عليه السلام [لما نفخ في آدم الروح مارت وطارت فصارت في رأسه فعطس ، فقالت الملائكه: قل الحمد لله ، فقال: الحمد لله ، فقال تعالى: يرحمك الله!] والقصة بطولها عند الطبري في تاريخه ، ومن هذا الحديث يظهر لنا أن "الحمد" من أعظم أسباب استجلاب الرحمة وفي حديث الشفاعة الطويل قال عليه الصلاة والسلام [فأستأذن على ربي فيؤذن لي ، ويلهمني محامد احمده بها لا تحضرني الآن ! ، فأحمده بتلك المحامد وأخر ساجدا ، فيقول: يا محمد إرفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعط وإشفع تشفع] متفق عليه، فالحمد منه "مبتدأ" رحمة البشرية - وذلك حين نفخت الروح في أبيهم آدم- وإليه "المنتهى" -حين يشفع لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة- فالحمد يطفئ غضب الرب جل جلاله في ذلك اليوم العظيم الذي يمتنع فيه الأنبياء عن الشفاعة لأن الله غضب غضبا لم يغضب مثله ولن يغضب بعده مثله.

وقد روى الأصبهاني في كتاب العظمة عن إبن مسعود رضي الله عنه قال [إن ربكم تبارك وتعالى ليس عنده ليل ولا نهار نور السماوات والأرض من نور وجهه ، وإن مقدار كل يوم عنده ثنتي عشرة ساعة ، فيعرض عليه أعمالكم بالأمس أول النهار فيطلع فيها على ما يكره فيغضب لذلك ، فأول من يعلم بغضبه الذين يحملون العرش يجدونه يثقل عليهم ، فتسبحه حملة العرش وسرادقات العرش والملائكة المقربون وسائر الملائكة ، وينفخ جبريل في القرن فلا يبقى شيء إلا يسبحه غير الثقلين ، فيسبحونه ثلاث ساعات حتى يمتلئ الرحمان عز وجل رحمة] قال تعالى {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} فتسبيحهم بحمده هو الذي يسكن عضبه جل وعلا!.

[ومن ذلك أن رجلا إدعى على الحسين بن علي مالا ، فقال الحسين: ليحلف على ما إدعاه ويأخذه ، فتهيأ الرجل لليمين وقال: (والله الذي لا إله إلا هو) ، فقال الحسين: قل (والله والله والله أن هذا الذي تدعيه عندي وفي قبلي) ، ففعل الرجل ذلك وقام فإختلفت رجلاه وسقط ميتا ، فقيل للحسين: لم فعلت ذلك -أي عدلت عن قوله (والله الذي لا إله إلا هو) الى (والله والله والله)؟ فقال: كرهت أن يثني على الله فيحلم عنه!!] الطرق الحكمية لإبن القيم: ٥٢ ، [وإختصم أبو عبدالله جعفر بن محمد الصادق هو ورجل عند الخليفة أبو جعفر ، فقال أبو عبد الله: إستحلفه يا أمير المؤمنين ، فقال له أبو جعفر: إحلف ، فقال: والله الذي لا إله إلا هو ، فقال أبو عبدالله: ليس هو كذا! إن العبد إذا مجد الله في يمينه أمهله في العقوبة ولكن قل: انا بريء من الله والله بريء مني وأنا خارج من حول الله وقوته راجع الى حول نفسي وقوتها ، فحلف الرجل فما رفع الا ميتا !! ، فراع ذلك ابا جعفر وقال: انصرف يا ابا عبدالله فلست أسألك عن شيء بعدها] إيقاظ أولي الهمة العالية: ٤١٥.

-الحمد منتهى العبودية-

ومن هنا كان [أفضل الدعاء الحمد لله] اخرجه الترمذي، و [الشكر من أعلى المقامات وهو أعلى من الصبر والخوف والزهد ، وهو مقصود لنفسه ولذلك لا ينقطع في الجنة! وليس فيها خوف ولا توبة ولا صبر ولا زهد ، ولذلك قال جل وعلا {وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} وقال عن أهل الجنة أيضا {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ}] إيقاظ أولي الهمم العالية: ٥٩ ، وعن إبن عباس رضي الله عنه قال [أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة (الحمادون): الذين يحمدون الله في السراء والضراء] رواه الطبراني في الأوسط .

-الحمد و التوحيد والشرك-

والحمد هو (الشكر) و (الثناء): فالشكر على النعم الجليلة ، والثناء على الصفات الجميلة ؛ فمن أدى ذلك فقد حقق التوحيد !

فإن صفات الله تعالى على قسمين (ذاتية) و (ومتعدية): فالذاتية تستوجب "التعظيم" والثناء قال تعالى {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا} ، والمتعدية تستوجب "المحبة" والشكر قال تعالى {الْحَمْد لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَر إِسْمَاعِيل وَإِسْحَاق إِنَّ رَبِّي لَسَمِيع الدُّعَاء} ؛ وقد مر معنا أنهما -أي الحب والتعظيم- قاعدة التوحيد في القلب ومن هنا كان (التوحيد) أعظم الحمد و (الشرك) أقبح التنقص لله والإستهانة به وبأسمائه وصفاته قال تعالى {إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (95) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ} وقال عن المشركين {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} ! ، وفي الأثر قال الله جل في علاه [وعزتي وجلالي لو يعلم العباد قدر عظمتي ما عبدوا غيري !] حادي الأرواح: ٢٢٤، قال العز إبن عبد السلام [والمقصود من العبادات كلها: إجلال الإله وتعظيمه ومهابته والتوكل عليه والفويض إليه] قواعد الأحكام .

[إذا تبين هذا فهاهنا أصل عظيم يكشف سر المسألة: وهو أن أعظم الذنوب عند الله إساءة الظن به! ، فإن المسيء به الظن قد ظن به خلاف كماله المقدس وظن به ما يناقض أسماءه وصفاته ولهذا توعد الله سبحانه الظانين به ظن السوء بما لم يتوعد به غيرهم كما قال تعالى {عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا} وقال تعالى لمن أنكر صفة من صفاته {وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين} وقال تعالى عن خليله إبراهيم أنه قال لقومه {ماذا تعبدونأئفكا آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين} أي فما ظنكم أن يجازيكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره ؟ وما ظننتم به حين عبدتم معه غيره ؟ وما ظننتم بأسمائه وصفاته وربوبيته من النقص حتى أحوجكم ذلك إلى عبودية غيره ؟ فلو ظننتم به ما هو أهله من أنه بكل شيء عليم وهو على كل شيء قدير وأنه غني عن كل ما سواه وكل ما سواه فقير إليه وأنه قائم بالقسط على خلقه وأنه المنفرد بتدبير خلقه لا يشركه فيه غيره والعالم بتفاصيل الأمور فلا يخفى عليه خافية من خلقه والكافي لهم وحده فلا يحتاج إلى معين والرحمن

بذاته فلا يحتاج في رحمته إلى من يستعطفه وهذا بخلاف الملوك وغيرهم من الرؤساء فإنهم يحتاجون إلى من يعرفهم أحوال الرعية وحوائجهم ويعينهم إلى قضاء حوائجهم وإلى من يسترحمهم ويستعطفهم بالشفاعة فاحتاجوا إلى الوسائط ضرورة لحاجتهم وضعفهم وعجزهم وقصور علمهم، فأما القادر على كل شيء الغني عن كل شيء الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء فإدخال الوسائط بينه وبين خلقه نقص بحق ربوبيته وإلهيته وتوحيده وظن به ظن السوء وهذا يستحيل أن يشرعه لعباده ويمتنع في العقول والفطر جوازه وقبحه مستقر في العقول السليمة فوق كل قبيح!

فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره ممن لا يقدر على خلق أضعف حيوان وأصغره وإن سلبهم الذباب شيئا مما عليه لم يقدر على استنقاذه منه، وقال تعالى {وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون} فما قدر من هذا شأنه وعظمته حق قدره من أشرك معه في عبادته من ليس له شيء من ذلك ألبتة بل هو أعجز شيء وأضعفه، فما قدر القوي العزيز حق قدره من أشرك معه الضعيف الذليل .

-الحمد و السنة والبدعة-

وكذلك ما قدره حق قدره من قال : إنه لم يرسل إلى خلقه رسولا ، ولا أنزل كتابا ، بل نسبه إلى ما لا يليق به ولا يحسن منه من إهمال خلقه وتضييعهم وتركهم سدى وخلقهم باطلا وعبثا ، ولا قدره حق قدره من نفى حقائق أسمائه الحسنى وصفاته العلا فنفى سمعه وبصره وإرادته واختياره وعلوه فوق خلقه وكلامه وتكليمه لمن شاء من خلقه بما يريده ، أو نفى عموم قدرته وتعلقها بأفعال عباده من طاعتهم ومعاصيهم فأخرجها عن قدرته ومشيئته وخلقه وجعلهم يخلقون لأنفسهم ما يشاءون بدون مشيئة الرب فيكون في ملكه ما لا يشاء ويشاء ما لا يكون تعالى عن قول أشباه المجوس علوا كبيرا، وكذلك لم يقدره حق قدره من

جعل له صاحبة وولدا أو جعله سبحانه يحل في جميع مخلوقاته أو جعله عين هذا الوجود .

-الحمد والسياسة والتحاكم-

وما قدره حق قدره من شارك بينه وبين عدوه في محض حقه من الإجلال والتعظيم والطاعة والذل والخضوع والخوف والرجاء فلو جعل له من أقرب الخلق إليه شريكا لكان ذلك جراءة وتوثبا على محض حقه واستهانة به وتشريكا بينه وبين غيره ولا ينبغي ولا يصلح إلا له سبحانه فكيف وإنما شرك بينه وبين غيره أبغض الخلق إليه وأهونهم عليه وأمقتهم عنده وهو عدوه على الحقيقة؟!، و ما عبد من دون الله إلا الشيطان كما قال تعالى {ألم أعهد إليكم يابني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم} فما عبد أحد من بني آدم غير الله كائنا من كان إلا وقعت عبادته للشيطان فيستمتع العابد بالمعبود في حصول غرضه ويستمتع المعبود بالعابد في تعظيمه له وإشراكه مع الله الذي هو غاية رضا الشيطان ولهذا قال تعالى {ويوم يحشرهم جميعا يامعشر الجن قد استكثرتم من الإنس} أي : من إغوائهم وإضلالهم {وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم} .

فهذه إشارة لطيفة إلى السر الذي لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله ، وأنه لا يغفره بغير التوبة منه ، وأنه يوجب الخلود في العذاب ، وأنه ليس تحريمه وقبحه بمجرد النهي عنه ، بل يستحيل على الله سبحانه أن يشرع لعباده عبادة إله غيره ، كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كماله ، ونعوت جلاله ، وكيف يظن بالمنفرد بالربوبية والإلهية والعظمة والإجلال أن يأذن في مشاركته في ذلك ، أو يرضى به ؟ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا] الداء والدواء: ١٧٠-١٧١ .

-البدعة اكبر الكبائر لأنها إخلال بتوحيد الأسماء والصفات-

ومن كلام ابن القيم السابق يظهر: أن من حمد الله تعالى تعظيم رسوله صلى الله عليه وسلم وإتباعه والتزام شرعه، وقد جعل الله تعالى الطعن في نبوته عليه الصلاة والسلام تنقصا من الربوبية فقال جل وعلا {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ} ، وقال عليه الصلاة والسلام مبينا إرتباط أسماء الله وصفاته بإرسال الرسل [ليسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ العُذْرُ مِنَ اللهِ، مِن أَجْلِ ذلكَ أَنْزَلَ الكِتَابَ وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ] متفق عليه ، فإرساله الرسل من آثار أسمائه وصفاته جل وعلا ولذلك ما حمده من طعن في نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو شتمه أو طعن في عرضه أو سب أصحابه أو بدل شرعه وحكم بغير حكمه أو إنتهج غير نهجه أو إهتدى بغير هديه أو سلك غير سبيله قال تعالى {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} ! ، [ولما كانت البدع المضلة جهلا بصفات الله وتكذيبا بما أخبر به سبحانه عن نفسه أو أخبر به رسوله "عنادا" و"جهلا" كانت كانت من أكبر الكبائر ، ولذلك كانت البدعة أحب إلى إبليس من كبائر الذنوب كما قال بعض السلف (البدعة أحب إلى إبليس من المعصية لإن المعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها) ، وقال إبليس: أهلكت بني آدم بالذنوب وأهلكوني بالإستغفار وبلا إله إلا الله فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء فهم يذنبون ولا يتوبون لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ومعلوم أن المذنب إنما ضرره على نفسه وأما المبتدع فضرره على النوع ، وفتنة المبتدع في أصل الدين -التوحيد والحمد- وفتنة المذنب في الشهوة ، والمبتدع قعد للناس على صراط الله المستقيم يصدهم عنه والمذنب ليس كذلك ، والمبتدع قادح في أوصاف الرب وكماله والمذنب ليس كذلك ، والمبتدع مناقض لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم والعاصي ليس كذلك ، والمبتدع يقطع على الناس طريق الآخرة والعاصي بطيء السير بسبب ذنوبه -ولكنه على الطريق-] الداء والدواء: ١٧٧ ، فأنت ترى أن كل بدعة منشأها الإخلال بأسماء الله وصفاته، ف"الشوك" مشأه الإخلال بصفة ملك الله وعظمته وتدبيره وألوهيته، و"إعذار المشركين" منشأه الإخلال بصفة علم الله وعدله وصدقه وتمام حجته على خلقه، و"تكفير المسلمين" منشأه الإخلال بصفة الرحمة والمغفرة والعدل والفضل، و"الطعن في أصحاب رسول

الله وآل بيته" منشأه الإخلال بعلم الله وحكمته وإصطفائه وكونه طيبا لا يقبل إلا طيب، وهكذا في سائر البدع ما من واحدة منها إلا تناقض إسما من أسماء الله او صفة من صفاته ولذلك فإن (تحقيق التوحيد) لا يكون إلا بإجتناب البدع وأهلها ، ومن هنا كانت وظيفة أهل السنة في كل زمان: تنزيه الرب جل وعلا عن كل ما ينسب إليه وإلى شرعه من قبل أهل البدع *[ف(الدين المبدل) يقوم على معنى مشترك في جميع الضلالات القديمة والحديثة ألا وهو: إستنقاص حق الله في صفاته وعبادته والواجب له! ، وهذه هي وظيفة اهل السنة] ندوة "الثبات والشمول" للشيخ عابد السفياني* قال عليه الصلاة والسلام [يحملُ هذا العلمَ مِن كلِّ خَلفٍ عُدولُهُ ، ينفونَ عنهُ تحريفَ الغالينَ ، وانتحالَ المُبطلينَ ، وتأويلَ الجاهلينَ] رواه البيهقي وصححه الإمام أحمد ، فرد البدع وفضح أهلها والذب عن السنة كل ذلك من (حمد الله) وتنزيه شرعه الذي هو فعل من أفعاله وأثر من آثار أسمائه وصفاته.

-الحمد والثقافة والتراث-

ويلحق بذلك كل ما له علاقة بالشرع كـ(اللغة العربية) و (تاريخ الأمة) و (ثقافتها) و (فنونها) و (علوم سلفها وتراثهم)! قال الإمام الشافعي رحمه الله [كل ما قالته الأمة راجع إلى السنة، وكل ما في السنة راجع إلى الكتاب العزيز، وكل مافي الكتاب العزيز راجع إلى أسماء الله الحسنى] البرهان للزركشي، قال الأستاذ محمد أبو موسى حفظه الله [فالقرآن كله .. والسنة كلها .. والثقافة كلها .. هي تحليل لأسماء الله الحسنى، وهذا يعود بثقافة الامة إلى عقيدتها المستكنة في نفوسها، وأن أصول دينها هي النبع الذي تسلسلت منه هذه الثقافة فالعناية بها عناية بالنبع فإن ثقافات الأمم إمتدادا لعقائدها، ومن هنا كان تهميش الثقافة العربية والإسلامية وإحلال ثقافات الآخرين ومناهجهم -التي هي فرع عن عقائدهم- جريمة في حق الأمة ودينها وعقيدتها، وقد كان علماءنا رحمهم الله شديدي العناية بتنشئة الأجيال وتربيتهم هلى ثقافة الامة وتسكين علومها في نفوسهم لأن الثقافة "إنتماء" فمن تربى على ثقافة العرب والمسلمين سينتمي إليهم

والعكس بالعكس، ومن هنا ألف علماءنا في العلوم كلها على التدرج فكان العالم منهم يضع في فنه مختصرا صغيرا للصبيان والمبتدئين وآخر اوسع منه للذين يلونهم وثالث اوسع منهما وهكذا يتدرجون مع الناشئة شيئا فشيئا لترسيخ هذه الثقافة وعلومها العربية والإسلامية في نفوسهم، ولاجل ذلك كله كان التزوير العلمي والثقافي حربا على الامة! كما قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم (من حمل علينا السلاح فليس منا، ومن غشنا فليس منا) فقرن بين الغش وحمل السلاح لأن من يخش الامة ويحدثها بمقالة حدوها كأنه حمل السلاح عليها]، فكتابات الرافعي ومحمود شاكر ومحمد أبو موسى وأبو قيس محمد رشيد في الشعر واللغة من حمد الله تعالى! ، وكتاب الدينوري [فضل العرب] وكتابات سفر الحوالي والشيخ ذياب الغامدي في الفكر والفن والثقافة أيضا من حمد الله ! ، والجهود التي يقوم بها أبناء الأمة في مختلف مجالات الحياة لحفظ تراث الأباء والأجداد في الملبس والمأكل والعادات والفنون التي هي الثقافة الأصيلة للأمة والتي يحاول الغرب سلخها منها ليحل مكانها ثقافته الهزيلة أيضا من حمد الله ! ، وكتاب الدكتور يوسف العش [الدولة الأموية] وغيره من الكتابات العميقة في الذب عن تاريخ الأمة أيضا من حمد الله ! ، وكتاب إبن رجب [فضل علم السلف] وعنايته رحمه الله في سائر مؤلفاته بآثار السلف وكذلك شرح الشيخ عبدالرحمن الحجي حفظه الله للموطأ وعنايته فيه بعلوم القرون المفضلة وتحقيقاته هو والشيخ عادل آل حمدان لتراثهم كل ذلك من حمد الله ! ، [فالحمد لله الذي حفظ على الأمة دينها في كتابه وسنة رسوله وبنقل العلماء -الذين هم في هذه الأمة كالأنبياء في الأمم السابقة يجددون للأمة دينها وثقافتها- وهدانا لذلك ، فأبطل الله بالعلماء كل بدعة وضلالة حدثت في هذه الأمة ، فيالها من نعمة ما أجلها في حق من تلقى الحق بالقبول وعرفه ورضي به ، نسأله جل وعلا أن يجعلنا (شاكرين) لنعمه (مثنين) بها عليه -فإن الحمد هو الشكر والثناء-: فله الحمد لا نحصي ثناءا عليه كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه خلقه] رسالة الشيخ عبدالرحمن بن حسن في جواب الجهمي ضمن مجموعة التوحيد: ٦٢ .

المفتاح الثالث .. (الإيمان بالغيب) !

{مالك يوم الدين}

-الإيمان بالغيب حاجة إنسانية-

إن الإيمان بالغيب هو احد اهم اركان الشخصية المسلمة التي لا تقوم إلا بها، والعقل البشري بطبيعته مفطور على الخيال فلا يمكنه الإقتصار على مجرد المحسوسات كحال البهائم فالإيمان بالغيب هو الذي يرتقي بالإنسان عن رتبه البهيمية ولذلك قال تعالى {وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ}، ومن هنا كان الإيمان بالغيب ضرورة إنسانية ولذلك فإن العقل البشري إذا لم يستضيء بنور (الإيمان بالغيب) تاه في ظلمات (الخرافة) ولا بد!، ولو تاملت في كلام من يصفون انفسهم انهم "عقلانيين" و "تنويريين" ...إلخ من الذين لم يدخل نور الإيمان بالغيب في قلوبهم ستجد عندهم من الخرافات قريب من تلك التي عند الوثنيين غير انهم يعرضونها بصورة "عصرية" يغر زيفها الجاهل،

ومن عاجل عقوبة الله لهؤلاء الذين إنحازوا عن امتهم وعن عقيدتها وثقافتها إلى مناهج الأغيار الباطلة ان يحبسهم في أرض التيه فلا الأغيار يقبلونهم ولا هم يحسبون على امتهم.

-الخرافيين-

ويقابلهم قوم جعلوا (الغيبيات) مجرد قصص وحكايا لا اثر لها في فكر ولا عمل أشبه ب"خرافات الهند" و "اساطير اليونان"، وقد تولى كبر ذلك اهل التصوف فأفسدوا العقل البشري وتأثر بهم الموافق والمخالف على حد سواء! .

فعلى سبيل المثال من اعظم جرائمهم في حق العقل البشري تشويههم لصورة (الولاية) وجعلها -تأثرا بالنصارى- الزنقطاع عن الدنيا وإعتزال أهلها فكلما كان الرجل اجهل ب"سنن الكون" و"طبائع البشر" كان عندهم اشد صلاحا قال تعالى {ورهبانية إبتدعوها ما كتبناها عليهم} وقال طاووس [لا رهبانية في الإسلام] "فتح الباري لإبن رجب: ١٠٢/١" وقال عليه الصلاة والسلام [إنَّ لكلِّ أمةٍ سياحةٌ -اي سفر وهجر للناس من اجل العبادة- وإنَّ سِياحةَ أُمَّتي الجهادُ في سبيلِ اللهِ وإنَّ لكلِّ أُمَّةٍ رهبانيةٌ ورهبانيةُ أُمَّتي الرِّباطُ في نُحورِ العَدُوِّ] رواه الهيثمي وابو داود، فالولاية الحقيقية هي التي يكون صاحبها جزءا من هذا الكون يؤثر به ويتاثر ويقوم فيه ب"المهمة الإنسانية " التي خلق الله آدم لاجلها {وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة}!، فالإنسان مامور بعمارة الأرض وسياسة الخلق فيها بشرع الله ولاجل ذلك قال عليه الصلاة والسلام [إنْ قامتْ على أحدِكُم القِيامةُ وفي يَدِه فَسيلةٌ فَليَغْرِسْها] رواه احمد وقال [المُؤمِنُ الذي يُخالِطُ النَّاسَ ويَصبِرُ على أذاهم، أعظَمُ أجْرًا مِن الذي لا يُخالِطُ النَّاسَ ولا يَصبِرُ على أذاهم] رواه احمد والترمذي.

-حقيقة الإيمان-

والصوفية -بمعناها العقدي- نقلت "الإيمان" من كونه فاعلا مؤثرا إلى معنى الكسل والسكون والعجز والنكوص، وعلى مدار التاريخ شكلت معوقات الإرادة الإنسانية معضلة كبرى في مختلف الأمم والحضارات فإنحازت اغلب المذاهب البشرية إلا القليل منها إلى جعل الاقدار الكونية ضد الإنسان وإرادته وجعلته كالريشة العارية الضعيفة لا تملك شيئا غير الخضوع والتسليم لرياح الاقدار تلعب بها كيف تشاء: فمن المذاهب من أسر الإنسان ضمن الخطيئة الأولى التي إقترفها آدم عليه السلام وهم النصارى وشابهتهم الشيعة في حبسهم الامة في حادثة كربلاء وقتل سيدنا الحسين رضي الله عنه، ومنها من اسره في ضعفه ضد الشيطان وجعل غاية امره أن يعزل نفسه عن الدنيا ويختبئ منها ويحصنها بنسك العجم والإنقطاع للعبادة دون أن يهاجم الباطل ويحطم اوثانه الحسية والمعنوية ويعمل على إزالة الجاهليات قديمها وحديثها، ومنهم من اسرهم لرغباته وشهواته والتسليم لنوازعه بلا ضبط ولا قيد من دين او خلق؛ وكل هذه المناهج الباطلة إنما كان منشأها التصورات الفاسدة لعالم الغيب إثباتا أو نفيا، وقد عالج النبي صلى الله عليه وسلم جميع إنحرافات الإرادة الإنسانية بقوله [الْمُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إلى اللهِ مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وفي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ علَى ما يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ باللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ، وإنْ أَصَابَكَ شيءٌ، فلا تَقُلْ لو أَنِّي فَعَلْتُ كانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَما شَاءَ فَعَلَ، فإنَّ لو تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ] رواه مسلم وهذا الحديث ينبغي العظيم لكل احد ان يطيل تامله فإنه لو لم يكن من دلائل نبوته عليه الصلاة والسلام وهدايته للبشرية إلا هو لكفى ولنا هنا وقفه مع جزءه الأول الذي يتكلم عن قضية (الإيمان): فإن الإيمان لما كان علم وعمل - كما هو عند السني- كان لا بد لصاحبه من القوة لتحقيقه في الواقع وكان غياب حقيقته العملية إبطال له ونقصها نقص له، ومن هنا وصف النبي صلى الله عليه وسلم النساء بقلة الدين -أي الإيمان- وفسر ذلك بقوله [يدعن الصلاة والصيام] مع ان تركهن مع ان تركهن الصلاة والصيام - للنفاس والحيض- امر خارج عن إرادتهن ولكن لما تخلف الفعل الإيماني جاء الوصف النبوي له بنقص الدين، فإن "الإيمان" هو الإنسان كما اموه الله تعالى ان يكون في قوله تعالى {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي

لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} والإنسان له قلب يفعل ويريد ولسان ينطق وجوارح تعمل وكل شق من هذه الثلاث قد ملاته اوامر الله عز وجل بما يناسبه وكل هذه الطاعات إيمان، ولذلك كان المؤمن الضعيف لا يدرك "إيمان" القوي الذي هو خير واحب إلى الله حتى ولو ادرك "أجره" بغير ذلك، فإن بلوغ درجات الاجور يكون لمعاني اخرى غير العمل لانها من باب الرحمة الإلهية وهي معاني اخروية لا ندرك تأويلها وزعمال قواعد الدنيا عليها خطأ، وهذا الخطأ هو الذي أدى بإبن حزم إلى القول بأن خير الناس بعد النبي صلى الله عليه وسلم واكملهم إيمانا هن زوجاته رضوان الله عليهن لأنهن رفيقاته في الجنة فلهن درجته من غير نبوة والنصوص صريحة في رد ذلك وتقديم غيرهن عليهن في درجات الإيمان ممن له القوة في العلم والعمل أكثر منهن كالخلفاء الأربعة رضوان الله عليهم.

والمقصود ان الزيمان هو العلم والعمل: فإذا غاب العلم بطلت إرادة المرء وصار "كسلانا"، وإذا غاب العمل كان ذلك إبطال للقوة وصار صاحبه "عاجزا"، ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يستعيذ من الأمرين فيقول [اللهم إني اعوذ بك من ااعجز والكسل] لانهما نقص في الإيمان وقد أثنى الله عز وجل على الانبياء عليهم السلام بقوله {وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ}، وقد بلغ زنحراف الصوفية في هذا الباب ان صاروا يعظمون المجانين والعاجزين والكسالى المتماوتين -وهذه كلها نقص في الحياة- وقدموهم على العلماء العاملين المؤثرين وهذا كله جهل منهم بحقيقة "الإنسان" و "الحياة" و "الإيمان" . !

-فضائل الإيمان-

وإذا علم المسلم هذا جيدا وإستقر عنده ان "القوة" من "الإيمان" فهم كيفية تحقق الوعود الإلهية التي علقت بالإيمان، وعلم أن الذين جعلوا الإيمان مجرد امر معرفي باطني انه لم يحققوا الإيمان ولذلك لن تتحقق لهم وعوده في الدنيا ولا في الآخرة!، وبذلك تفهم حقيقة قوله تعالى {ولن

يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا} وذلك انه من المعلوم من واقع الحياة والتاريخ ان الكافر قد يتغلب على المؤمن ولكن هذا التغلب إنما يكون سببه ضعف المؤمن وقوة الكافر وهذه الوعود -وجميع وعود الشرعية- إنما هي فيمن حقق شرطها وهو هنا إيمان القوة على جهة الكمال ومن اخل بشيء من ذلك نقص نصيبه من هذه الوعود الدنيوية والاخروية بقدر إخلاله وضعف إيمانه ولذلك حين علت قريش الجبل في يوم احد وقال النبي صلى الله عليه وسلم [زنه لا ينبغي لهم ان يعلونا] إشتد الصحابة في القتال حتى انزلوهم! فهذا هو فهم الصحابة وضي الله عنهم للوعود الإلهية فهم المؤمن القوي لا فهم اهل العجز والكسل وهي انها في حقيقتها "امر" قبل ان تكون "خبر" إذ كما يقرر اهل الاصول ان من صيغ الامر أن يأتي على وجه الخبر كما في قوله جل وعلا عن الحرم {ومن دخله كان آمنا} فإنه امر بتأمين من دخل الحرم تعظيما للبيت .

-أثر الإيمان بالغيب-

وها هنا مسألتين :-

١- إن نظرة الإنسان لوجود هي ظل لتصوراته للغيب!، فإن [مما لا يدركه كثير من الناس أن الغيوب التي يخبونا بها القرآن وما اخرجه لنا من اغوار التاريخ وتلافيف الزمان من قصص وأخبار وما تحويه من معارف وما تبنيه من حقائق هدفه الحقيقي: تكوين وعي البشر وبناء أذهانهم ونفوسهم التي يرون بها ويفهمون الحياة وكل شيء في الوجود وليس مجرد القص والإخبار ولا حتى العظة فإن هذه كلها اهداف ساكنة وغايات جامدة تجعل القرآن تجعل مكان القرآن المتاحف لا حياة البشر!، ولا فرق حينئذ بينه وبين برديات المصريين القدماء وآثارهم وما فيها من أخبار وحقائق عنهم وعن زمانهم.

إن القرآن هو بيان الإله الحي إلى خلقه وهو نص لفهم الوجود وصناعة الحياة بما فيه من المعارف والأخبار، ولو لم يأت القرآن بهذه الغيوب ويعرف الإنسان بحقائقها لإختل تكوينه ووعيه ولتقلقل بناء ذهنه ونفسه

ولإضطرب فهمه للأشياء والاحداث والزمان والتاريخ بل لإختل وإضطرب فهمه لذاته وفقد كينونته!.

ومما يغفل عنه كثير من الناس أن الصورة التي يعرف بها الإنسان الماضي وتتحكم في فهمه لحاضره وإدراكه لمستقبله فإذا عرف الإنسان الماضي مشوها أو محرفا تشوه إدراكه للحاضر والمستقبل، ومنهج القرآن وما يريد ترسيخه في وعي البشر وأذهانهم من خلال ما اورده من قصص وأخبار انه لا يمكنك أن تفهم ما يحدث في الحياة فهما صحيحا إلا إذا عرفت ما حدث -في الماضي- على وجهه الصحيح، ولذا إذا أخبرك القرآن بقصة وكررها وألح في إخبارك بها فهذا يعني ان هذه القصة وما تحويه من حقائق لها موقع محوري في تكوين وعي الإنسان الذي يرى به ويفهم كل شيء وأن إفتقادها أو إخفاءها أو تحريفها والعبث بمكوناتها يؤدي إلى خلل في تكوين الإنسان وفي فهمه لكل شيء في الوجود والحياة] "شفرة سورة الإسراء لبهاء الامير: ٦٧"، ولأستاذ العبقري عبدالوهاب المسيري رحمه الله محاضرك بعنوان (علي عزت بيجوفيتش) بين فيها كيف أثر إنحراف الغرب في فهم قصة خلق آدم في إنشاء تصورهم الخاطئ لمفهوم "الإنسانية" في فكرهم الحديث! .

٢- أن فصل "رجال الدين" عن "علوم الدنيا" فكرة كنسية في أصلها، وعدم قدرة الفكر الغربي الحديث على تجاوزها هو الذي إضطرهم في وقت من الاوقات الى الإختيار بين الدين والعلم، وهي مبطلة لكمال الانبياء "الإنساني" الذي جعلهم أهلاً للنبوة فإن الله عز وجل لا يضع البذرة إلا في الأرض التي تناسبها كما قال {الله اعلم حيث يجعل رسالته} وقال {وكانوا أحق بها وأهلها}، والنصوص الشرعية كلها تبطل هذه الفكرة المحرفة وتبين أن الأنبياء عليهم السلام عبر تاريخ البشرية كانوا هم أهل العلم -بمعناه المادي- والفكر والإبتكار والإبداع عبر تاريخ البشرية الطويل فهم عليهم الصلاة والسلام اكمل الناس عقولا واحدهم أذهانا واقدرهم على فهم أسرار الحياة، فهذا آدم عليه السلام اعظم "مستكشف" في الوجود كما وصفه ربنا جل وعلا بقوله {وعلم آدم الاسماء كلها} أي علمه اسماء ما خلق من الارض والدواب والهوام والطير لأنه سيستخلف فيها

قاله الكلبي ومقاتل وإبن قتيبة، قال الزمخشري شارحا ذلك: إن الله الهم آدم سر الإهتداء إلى أحوال الأشياء وخصائصها وما يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية ثم كان آدم عليه السلام يضع لها من الاسماء ما يوافق حقيقتها! وذلك انه كمال قال إبن جني في خصائصه [إن اصل اللغة لا بد فيه من "المواضعة" وذلك بأن يضع حكيمان أو ثلاثة لكل واحد من الأشياء سمةً -وصف- ولفظاً -إسم-] اي ان الله علمه ما يسمى اليوم ب"منهج البحث العلمي" ولذلك قال اهل العلم عند هذه الآية أن الله علم آدم اسماء ما كان من أشياء في زمانه وعلم ذريته من بعده أسماء زمانهم فكل إكتشاف تكتشفه البشرية إلى قيام الساعة راجع إلى تعليم الله لآدم!، وهذا نوح عليه السلام مخترع السفينة واعظم عالم فيما يسمى اليوم ب"علم الحيوان" -Zoology-، والخرافيين عند وقوفهم مع قصته عليه السلام يظنون انه حين امره الله ان يحمل من كل حيوان زوجين إثنين نادى بصوت واحد فصعدت جميع الحيوانات إلى السفينة مذللة مذعنة بغير قياد ودون أن يكون نوح عليه السلام قد امضى السنوات الطوال في تتبعها ودراستها ومن ثم إصطيادها وجمعها وتهيئة البيئة المناسبة لها داخل السفينة وتصميم السفينة بما يخدم هذا المقصد وتخدير السباع فيها حتى لا تفترس باقي الحيوانات ونحو ذلك ولهذا جاء أنه عليه السلام بقي يعمل على سفينته مئتي عام كما ذكر أهل التفسير! *وقد فعل العلامة كمال الدين الدميري الشافعي رحمه الله مثل ذلك حين اراد ان يضع كتابه العظيم [حياة الحيوان الكبرى] الذي هو فرد في بابه*، وهذا إبراهيم عليه السلام إمام البشرية في مختلف ابواب الحياة ففي "علم الإجتماع" كان عليه السلام اول من ضيف الضيف وجعل لداره اربعة ابراب على الزتجاه الاربعة حتى لا يفوته المار من اي إتجاه جاء إلا ويضيفه وكان أول صنع الحنيذ وأول من إختتن وإستنجى بالماء وحف شاربه وفرق رأسه، وفي "العلوم العسكرية" كان أول من ضرب بالسيف وصنع القوس والسهم واول من قسم الجيش إلى ميمنة وميسرة وقلب وكان إبنه إسماعيل عليه السلام اول من ركب الخيل وقد كانت قبله وحشية لا تألف البشر، وكان داود عليه السلام أول من صنع الدروع، وكان زكريا نجار، وإدريس خياط، وفي "العلوم السياسية" قال عليه الصلاة

والسلام [كَانَت بَنُو إسرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبياءُ، كُلَّما هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبيٌّ]، وهذا الإمام الشافعي رحمه الله بقي عشرين سنة ملازما للاعراب يتعلم منهم اللغة والفراسة ورحل إلى اليمن لتحصيل كتبها وكان من عباقرة الدنيا، وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله لم تقتصر معارفه على العلوم الشرعية وحدها بل تكلم في الطب والفلك واللغات بل والهندسة والطيران وغيرها وله اللفتات العحيبة في "علم النفس" منثورة في كلامه كقوله عن علم الحساب [ففي الإدمان على معرفة ذلك تعتاد النفس العلم الصحيح والقضايا الصحيحة الصادقة والقياس المستقيم فيكون في ذلك تصحيح للفهم والإدراك وتعود للنفس ان تعلم الحق وتقوله لتستعين به على المعرفة التي هي فوق ذلك] الفتاوى: ١٢٨/٩، وعبر تاريخ الامة كان عامة المؤرخين هم رجال الدين وعلماء الشريعة، وهكذا يكون السني الصحيح جزئا من هذا الكون آخذ الكتاب فيه بقوة وقائم فيه بالمهمة التي أوكلها الله إليه من عمارته وإقامة الشرع فيه فإنه بذلك تحصل السيادة وعلو المنزلة عند الله جل جلاله ومن هنا كان سادات الملائكة هم الموكلون بالتدبير لا مجرد العباد واهل الذكر منهم فجبريل عليه السلام موكل بالوحي وقضاء الحاجات وميكائيل بالقطر والزرع وإسرافيل بالنفخ في الصور والرضوان خازن الجنة ومالك خازن النار وهذا كله راجع إلى المعنى الذي ذكرنا! .

-اليوم الآخر-

وقد خصت سورة الفاتحة الإيمان ب(اليوم الآخر) بالذكر لأنه سر حياة القلب، ولذلك كانت اكثر قضية نوع القرآن في طرق عرضها على الإطلاق واشد ما انكره على مشركي العرب بعد الشرك، ولما عد في مفتتح كتابه "شروط الإنتفاع بالقرآن" ذكر اولها الإيمان بالغيب ثم خص منه اليوم الآخر تشريفا له بل ولم يكتف فيه بنفس درجة الإيمان لباقي الغيبيات فإشترط فيه "اليقين" فقال {الم (1) ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ

يُوقِنُونَ (4) أُولَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}، وذلك ان هذا القرآن "عزيز" ومن عزته أن الله لم يجعل الإنتفاع به مبذولا لكل احد ولكن لمن أتى بشرطه وإستحق أن ينال هدايته و{اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} واول شروط ذلك (الإيمان باليوم الآخر) ، بل إن ربنا جل وعلا جعل هذا القرآن يزيغ قلوب أهل الزيغ ويضلهم ويزيدهم رجسا إلى رجسهم غيرة منه عز وجل أن يدنوا منه من ليس له بأهل قال عليه الصلاة والسلام [القرآنُ شافعٌ مشفَّعٌ ، وماحِلٌ مصدَّقٌ ، من جَعلَه أمامَه قادَه إلى الجنَّةِ ، ومن جعلَه خَلفَ ظهرِه ساقَه إلى النَّارِ] رواه إبن حبان .

-حقيقة الإيمان باليوم الآخر-

وإعلم أن الإيمان باليوم الآخر ليس مجرد مواعظ تلقى باللسان وتذرف لها الدموع وإنما هي حقيقة تستقر في القلب تكف صاحبها عن "إتباع هواه" قال تعالى {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى}، وهذه هي صفة (الإيمان باليوم الآخر) عند الصحابة والسلف رضوان الله عليهم ففي موطأ الإمام مالك رحمه الله عن إبن مسعود رضي الله عنه قال [إِنَّكم فِي زَمَانٍ كَثِيرٌ فُقَهَاؤُهُ قَلِيلٌ قُرَّاؤُهُ ، تُحْفَظُ فِيهِ حُدُودُ الْقُرْآنِ وَتُضَيَّعُ حُرُوفُهُ، قَلِيلٌ مَنْ يَسْأَلُ كَثِيرٌ مَنْ يُعْطِي، يُطِيلُونَ فِيهِ الصَّلَاةَ وَيَقْصُرُونَ الْخُطْبَةَ، يُبَدُّونَ أَعْمَالَهُمْ قَبْلَ أَهْوَائِهِمْ ، وَسَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ قَلِيلٌ فُقَهَاؤُهُ ، كَثِيرٌ قُرَّاؤُهُ ، يُحْفَظُ فِيهِ حُرُوفُ الْقُرْآنِ وَتُضَيَّعُ حُدُودُهُ، كَثِيرٌ مَنْ يَسْأَلُ قَلِيلٌ مَنْ يُعْطِي ، يُطِيلُونَ فِيهِ الْخُطْبَةَ وَيَقْصُرُونَ الصَّلَاةَ، يُبَدُّونَ فِيهِ أَهْوَاءَهُمْ قَبْلَ أَعْمَالِهِمْ] وفي حديث زبن عمر رضي الله عنه حين سمع كلمة يكرهها من معاوية رضي الله عنه قال [فَحَلَلْتُ حُبْوَتِي وَهَمَمْتُ أَنْ أَقُولَ، فَذَكَرْتُ مَا أَعَدَّ اللَّهُ فِي الجِنَانِ فحُفِظْتَ وَعُصِمْتَ] رواه البخاري، فمن كان إيمانه باليوم الآخر على مثل ما كان عليه الصحابة والسلف فهو السني ومن لم يكن كذلك فليس منهم في شيء وإن إدعى ما شاء وتمنى على الله الأماني فإن "السنة" و "السلفية" -كما سبق- منهج حياة وليست مجرد دعوى من طرف اللسان أو قواعد ذهنية لا اثر لها من عمل قال تعالى {لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ۗ

مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} ، والناس في إتباعهم الهوى درجات فاهل الشرك شرهم قال تعالى {إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ} ويليهم اهل البدع فإن سبب كل بدعة وضلالة الإخلال بالإيمان باليوم الآخر قال تعالى {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} قال الإمام الشاطبي رحمه الله [ولذلك سمي أهل البدع (أهل الأهواء) لأنهم اتبعوا أهواءهم، فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار إليها والتعويل عليها حتى يصدروا عنها، بل قدموا أهواءهم واعتمدوا على آرائهم ثم جعلوا الأدلة الشرعية منظورا فيها من وراء ذلك] الإعتصام: ٤٤٧، ومما يلحق بذلك ايضا تقديم الشهوات المباحة على الأعمال الصالحة التي ألزم الإنسان نفسه بها كالاوراد والأذكار والنوافل التي زعتاد العبد أداءها وجعلها لنفسه صلة بينه وبين ربه فمن قدم ما تهواه نفسه على شيء منها أوشك ان ينقطع ولاجل ذلك جاء في الحديث [يا أَيُّهَا النَّاسُ علَيْكُم مِنَ الأعْمَالِ ما تُطِيقُونَ، فإنَّ اللَّهَ لا يَمَلُّ حتَّى تَمَلُّوا، وإنَّ أَحَبَّ الأعْمَالِ إلى اللهِ ما دُووِمَ عليه، وإنْ قَلَّ، وَكانَ آلُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ إذَا عَمِلُوا عَمَلًا أَثْبَتُوهُ] متفق عليه.

والمقصود أن حقيقة الإيمان باليوم الآخر -كما بين إبن مسعود- هي ملاحظة دقيق الهوى وتقديم مراد الله على مراد النفس في الاقوال والأعمال والإختيارات كلها وبحسب يقين المرء باليوم الآخر تكون درجته في هذا الباب ، والنفس تخادع صاحبها إذا لم يراقبها وتلبس عليه امره قال سفيان الثوري رحمه الله [ما عالجت شيئا أشد عليَّ من نيتي لأنها تتقلب عليَّ] وقال يوسف بن الحسين الرازي [أعزُّ شيءٍ في الدنيا الإخلاص، وكم أجتَهِد في إسقاط الرِّياء عن قلْبي، وكأنَّه ينبت فيه على لونٍ آخَرَ]! .

ونختم بمسألة يذكرها اهل العلم في كتبهم ألا وهي الفرق بين عبادتي "الخشية" و"الخوف" :-

وذلك أن "الخشية" تكون تعظيما للذات ففيها معنى قوله (الحمد لله وب العالمين) و "الخوف" يكون من العقوبة ففيه معنى (مالك يوم الدين) قال تعالى {وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ} .

ولذلك كانت الخشية أعلى منزلة من الخوف فهي مرتبة الصديقين العارفين بالله المعظمين له ولذلك قال تعالى {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعلمَاء} وقال عليه الصلاة والسلام مبينا منزلته الشريفة في هذا الباب [أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَةً] رواه البخاري وقال حل وعلا عن الملائكة {يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} وفي الحديث [إنَّ للَّهِ تعالى ملائِكةً ترعَدُ فرائصُهم من خيفتِه ما منهم ملَك تقطرُ منهُ دمعة من عينِه إلَّا وقعت على ملَكٍ يصلِّي وإنَّ منهم ملائِكةً سجودًا منذُ خلقَ اللَّهُ السَّمواتِ والأرضَ لم يرفعوا رؤوسهم منذُ خلقَ اللَّهُ السَّمواتِ والأرضَ ولا يرفعونَها إلى يومِ القيامةِ فإذا رفعوا رؤوسهم نظروا إلى وجهِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ فقالوا سبحانَك ما عبدناكَ حقَّ عبادتِكَ] وقال عليه الصلاة والسلام [لما كان ليلة أسرى بي، رأيت جبريل عليه السلام كالشن البالي من خشية الله تعالى] وعن يزيد الرقاشي رحمه الله قال: [إن لله تعالى ملائكة حول العرش تجري أعينهم مثل الأنهار إلى يوم القيامة، يميدون كأنما تنفضهم الريح من خشية الله تعالى، فيقول لهم الرب عز وجل: يا ملائكتي ما الذي يخيفكم وأنتم عندي؟ فيقولون: يارب! لو أن أهل الأرض اطلعوا من عزتك وعظمتك على ما اطلعنا عليه، ما أساغوا طعاماً ولا شراباً، ولا انبسطوا في فرشهم، ولخرجوا إلى الصحارى يخورون كما تخور البقر!] وقال وهب رحمه الله [ما رفع آدم رأسه إلى السماء بعدما أصاب الخطيئة] وقال أبو الدرداء رضي الله عنه [كان يسمع لصدر إبراهيم عليه السلام إذا قام إلى الصلاة أزيز من بعد خوفاً من الله عز وجل] وعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما [أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر

بوادي " الأزرق " فقال (أي واد هذا ؟) فقالوا : هذا وادي " الأزرق " ، قال : (كأني أنظر إلى موسى عليه السلام هابطا من الثنية ، وله جؤار إلى الله بالتلبية)] ، وكان داود عليه السلام يعوده الناس يظنون أنه مريض وما به إلا شدة الفرق من الله عز وجل!، وعن إسحاق بن إبراهيم الطبري قال [وقفت مع الفضيل بن عياض بعرفات ، فلم أسمع من دعائه شيئا إلا أنه واضع يده على خده ، واضع رأسه يبكي خفيّا ، فلم يزل كذلك حتى أفاض الإمام ، فرفع رأسه إلى السماء وقال: واسوأتاه منك وإن عفوت!]، وقد جعلها الله منزلة أهل الجنتين العليا فقال {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} ، وعن إبن عباس رضي الله عنه [إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنشد قولَ أُميَّةَ بنِ أبي الصَّلتِ الثَّقفيِّ : والشَّمسُ تُصبِحُ كلَّ آخرِ ليلةٍ

حمراءَ يُصبِحُ لونُها يتورَّدُ

تأبَى فما تطلُعُ لنا في رِسلِها

إلَّا معذَّبةً وإلَّا تُجْلَدُ

فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم : صدَقَ] التوحيد لإبن خزيمة، قال إبن عباس [والذي نفسي بيده ما طلعت الشمس قط حتى ينخسها سبعون الف ملك يجرونها بالسلالس يقولون لها: اطلعي اطلعي، فتقول: لا اطلع على قوم يعبدونني من دون الله] اخرجه إبن عساكر، قال عكرمة [إن الشمس إذا غربت دخلت بحرا تحت العرش فتسبح الله عز وجل حتى إذا هي اصبحت استعفت ربها من الخروج فقال لها الرب جل جلاله: ولم ذاك؟ والرب اعلم، قالت: إني إذا خرجت عبدت من دونك!، فقال لها الرب تبارك وتعال: اخرجي فليس عليك في ذلك شيء حسبهم جهنم ابعثها عليهم مع ثلاثة عشر ألف ملك يقودونها حتى يدخلوهم فيها] وقال طاووس [ورب هذه البنية إن هذا القمر ليبكي من خشية الله وليس له ذنب]، قال إبن عباس [إذا قامت القيامة: قضى الله بين الناس وميز بين أهل الجنة والنار ولم يدخلوها بعد إذ يدعو الرب جل جلاله بالشمس والقمر، فيجاء بهما اسودين مكورين قد وقعا في زلازل وبلابل ترعد فرائصهما من هول ذلك اليوم و مخافة الرحمن تبارك وتعالى، وإذا كانا حيال العرش خرا لله ساجدين فيقولان: إلهنا فد علمت طاعتنا لك

ودؤوبنا في عبادتك وسرعتنا في المضي في امرك أيام الدنيا فلا تعذبنا بعبادة المشركين إيانا وقد علمت أننا لم ندع إلى عبادتنا ولم نذهل عن عبادتك، فيقول الرب تبارك وتعالى: صدقتما] العظمة للاصفهاني: ١١٧٧ .

المفتاح الرابع .. (تحقيق التوحيد) !

{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}

قال الإمام محمد بن عبدالوهاب في (كتاب التوحيد) [باب/ من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب] ، فما هو تحقيق التوحيد؟ وهل الناس في أنواع التوحيد الثلاثة -"الربوبية" و "الألوهية" و "الأسماء والصفات"- على مرتبة واحدة؟

نقول: إن (تحقيق التوحيد) قدر زائد على مجرد الإتيان ب(أصل التوحيد) الذي به يكون المرء مسلما ، إن تحقيق التوحيد هو الإتيان به على جهة الكمال كما قال تعالى عن إمام الموحدين عليه السلام {وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ} وقال {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ

إِمَامًا} ؛ وتحقيق التوحيد -كما بين الإمام محمد بن عبدالوهاب في كتابه- يكون بأمرين:-

الأول/ البراءة من "الشرك" و"أهله" لقوله {وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ} وقوله {وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} .

الثاني/ إجتناب "البدع" و"أهلها" لقوله [قد أحسن من إنتهى إلى ما سمع].

ومن هنا جاءت "الشهادتين" ! ، فشهادة أن (لا إله إلا الله) يؤخذ منها الأمر الأول: البراءة من الشرك وأهله ، وشهادة أن (محمدا رسول الله) يؤخذ منها الأمر الثاني: إجتناب البدع وأهلها ، فمن حقق ذلك على جهة الكمال فقد [حقق التوحيد] وإستحق بذلك -ولو بلغت ذنوبه عنان السماء- نيل فضائل الشهادتين الواردة في نصوص الكتاب والسنة والتي أفرد لها الإمام محمد بابا [باب/ فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب] وفصلها الإمام إبن رجب في رسالته النفيسة [كلمة الإخلاص وتحقيق معناها] ، ومن أخل بشيء من ذلك -البراءة من الشرك وأهله والبدع وأهلها- نقص له من الفضل بقدر ما أخل بالشهادتين وفي خبر قدوم وفد قضاعة على النبي صلى الله عليه وسلم انهم قالوا [برئنا إليك من الوثن و حوادث الزمن لنا دعوة الإسلام وشريعة الإسلام، فقال عليه الصلاة والسلام: (من اقر بما في هذا الكتاب فله من الله الوفاء بالعهد والذمة)] !! رواه إبن سعد في الطبقات .

ولذلك كثيرا ما يقرن ربنا في كتابه بين (الإيمان) الذي هو التوحيد والبراءة من الشرك وأهله و (العمل الصالح) الذي هو السنة ومجانبة البدع وأهلها ! ، [فهذا ميزان عادل توزن به موافقة الرب ومخالفته وموالاته ومعاداته: فإذا رأينا شخصا يحب ما يكرهه الرب تعالى ويكره ما يحبه علمنا أن فيه من معاداته بحسب ذلك ، وإذا رأينا الشخص يحب ما يحبه الرب ويكره ما يكرهه وكلما كان الشيء أحب إلى الرب كان أحب إليه وآثر عنده وكلما كان أبغض إلى الرب كان أبغض إليه وأبعد عنه علمنا أن فيه موالاة الرب بحسب ذلك ، فتمسك بهذا الأصل في نفسك وفي غيرك ف(الولاية) عبارة عن موافقة العلي الحميد في محابه ومساخطه وليست بكثرة صوم

ولا صلاة -إذا أخل بذلك-!] الداء والدواء: ٢٣٩ ، قال إبن عقيل رحمه الله [إذا أردت أن تعلم محل الإسلام من أهل الزمان -أي مقدار تحقيقهم للتوحيد-: فلا تنظر إلى زحامهم في أبواب الجوامع ، ولا ضجيجهم في الموقف بلبيك ، وإنما انظر إلى مواطأتهم أعداء الشريعة] الآداب الشرعية لإبن مفلح: ٢٣٨/١.

-بماذا سبق أصحاب رسول الله غيرهم؟-

فإذا تبين لك ذلك علمت لم سبق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأخر غيرهم ، فإن الصحابة الكرام رضي الله عنهم بشر من البشر فيهم العالم وفيهم العابد وفيهم الجاهل والأعرابي وشارب الخمر والزاني والسارق إلا أنهم جميعا كانوا أصحاب (منهج) صافي -يبرأ من الشرك والبدع وأهلهما- رباهم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولذلك لا تجد بينهم مشركا ولا صاحب بدعة رضوان الله عليهم بينما هم في غير ذلك كسائر الناس! ، قال عليه الصلاة والسلام [تركتُكمْ على البيضاءِ ليلُها كنهارِها، لا يَزِيغُ عنها بعدي إلا هالكٌ، ومنْ يعشْ منكمْ فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكمْ بما عرَفْتمْ منْ سنتِي، وسنةِ الخلفاءِ الراشدينَ المهديينَ، عضُّوا عليها بالنواجذِ] أخرجه أحمد وأبو داود.

وقد كان السلف رحمهم الله يفقهون هذه المسألة جيدا وكانت عندهم من أوضح المسائل ولذلك حرصوا على غرسها في نفوس أهل زمانهم ومما يستملح في هذا الباب ما ذكره إبن أبي الدنيا [أن رجلا سأل أبو إسحاق الفزاري عن "النباش" -الذي ينبش القبور وينهب ما فيها- هل له توبة؟ فقال: نعم إن صلحت نيته وعلم الله منه الصدق ، فقال له الرجل: كنت أنبش القبور وكنت أجد قوما وجوههم لغير القبلة؟! ، فلم يكن عند الفزاري في ذلك شيء فكتب إلى الأوزاعي يخبره بذلك ، فكتب إليه الأوزاعي: تقبل توبته إذا صحت نيته وعلم الله الصدق من قلبه وأما قوله أنه كان يجد قوما وجوههم لغير القبلة فؤلائك قوم ماتوا على غير السنة !] الروح لإبن القيم: ١٠٠ ، وقد ذكر المبرد: أن لصا تعرض لصاحب بستان وأمره بنزع ثيابه ليسلبها منه ويلبسها ، فقال صاحب البستان

للص: أحلف لك أيمانا بأني إذا وصلت إلى بستاني نزعت ثيابي ووجهت بها إليك ، فقال اللص: لا إنا روينا عن مالك بن أنس أنه قال "لا تلزم الأيمان التي يحلّف بها اللصوص" ، فقال صاحب البستان: والله لأوجهن لك بالثياب طيبه بذلك نفسي ، فأطرق اللص مفكرا ثم رفع رأسه فقال: أتدري فيم فكرت؟ تصفحت أمر اللصوص من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وقتنا هذا فلم أجد لصا أخذ بنسيئة –أي بالاجل- وأكره أن أبتدع في الإسلام بدعة يكون علي وزرها ووزر من عمل بها بعدي إلى يوم القيامة ! فإخلع ثيابك ، فخلعها ؛ فإذا كان هذا حال "السراق" في زمن السلف فما ظنك بعلمائهم وصالحيهم ؟!

-سر الفاتحة-

والشاهد عندنا هنا قوله { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} فإنه قد جمع ذلك كله: فقوله (إياك نعبد) فيه البراءة من الشرك وأهله وموالاة أهل التوحيد والإنتساب إليهم لقوله "نعبد" بصيغة الجمع ، و(إياك نستعين) فيه البراءة من البدع وأهلها وموالاة أهل السنة والإنتساب إليهم لأنه أخبر أنهم في عبادتهم له لم يحدثوا شيئا من عند أنفسهم وإنما هم "مستعينين" في ذلك بكتابه الذي أنزل والسنة التي أوحاها لرسوله وما كان عليه الصحابة والتابعون.

وهذه الآية هي "سر" سورة الفاتحة!، فما قبلها إنما هو مقدمة وما بعدها تفصيل لما فيها وقد أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى في حديث [قسمت الصلاة]! ومن هنا قال شيخ الإسلام إبن تيمية [تأمَّلتُ أنفع الدعاء فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}] مدارج السالكين: ١/٧٩ ، ومن هنا أيضا كانت هذه الآية شعار من سبقنا من أهل التوحيد الخالص (إخوان من طاع الله) رحمهم الله- فقد كانوا يحدون بها قوافلهم في الغزو والسفر كما ذكر ذلك عنهم الدميجي في كتابه [صفحات مطوية من تاريخ الجزيرة العربية] !! .

فلا يكون المرء على الجادة الصحيحة حتى:

1- يعرف الحق في نفسه أولا ثم ينظر في أصحابه من أهل زمانه فيواليهم -وسيأتي مزيد تفصيله في (المفتاح السادس)- .
2- ويعرف الباطل في نفسه ثم ينظر في أصحابه من أهل زمانه فيعاديهم، وقد قال فاروق هذه الأمة رضي الله عنه [إنما تُنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية] فلا تكفي أن تعرف الحق إذا لم يعرف ما يضاده وقد قيل:

الضد يظهر حسنه الضد .. وبضدها تتميز الأشياء

قال إبن القيم رحمه الله [إن الكمال الإنساني مداره على أصلين: معرفة الحق من الباطل ، وإيثاره عليه ؛ وما تفاوتت منازل الخلق عند الله تعالى في الدنيا والآخرة إلا بقدر تفاوت منازلهم في هذين الأمرين ، وهما اللذان أثنى الله بهما سبحانه على أنبيائه بهما في قوله تعالى {واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار} ف(الأيدي) القوة في تنفيذ الحق و(الأبصار) البصائر في الدين فوصفهم بكمال إدراك الحق وكمال تنفيذه ، وانقسم الناس في هذا المقام أربعة أقسام:

القسم الأول: -هم اهل البصر بالدين والقوة على تنفيذه- فهؤلاء أشرف الأقسام من الخلق وأكرمهم على الله تعالى .

القسم الثاني : عكس هؤلاء ، من لا بصيرة له في الدين ولا قوة على تنفيذ الحق ، وهم أكثر هذا الخلق ، وهم الذين رؤيتهم قذى العيون وحمى الأرواح وسقم القلوب ، يضيقون الديار ويغلون الأسعار ، ولا يستفاد من صحبتهم إلا العار والشنار .

القسم الثالث : من له بصيرة بالحق ومعرفة به لكنه ضعيف لا قوة له على تنفيذه ولا الدعوة إليه ، وهذا حال المؤمن الضعيف ، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله منه .

القسم الرابع : من له قوة وهمة وعزيمة ، لكنه ضعيف البصيرة في الدين ، لا يكاد يميز بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، بل يحسب كل

سوداء تمرة وكل بيضاء شحمة ، يحسب الورم شحما والدواء النافع سما .
وليس في هؤلاء من يصلح للإمامة في الدين ، ولا هو موضع لها سوى القسم الأول -إذ هو الذي (حقق التوحيد) على جهة الكمال كما مر معنا من قوله تعالى لإبراهيم {وإذ إبتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما} قال إبن عباس [الكلمات التي ابتلى الله بهن إبراهيم فأتمهن : فراق قومه في الله حين أمر بمفارقتهم، ومحاجته النمرود في الله حين وقفه على ما وقفه عليه من خطر الأمر الذي فيه خلافه، وصبره على قذفه إياه في النار ليحرقوه في الله على هول ذلك من أمرهم، والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده في الله حين أمره بالخروج عنهم ، وما أمره به من الضيافة والصبر عليها بنفسه وماله -وهي من صور موالاة اهل التوحيد والسنة-] -، قال الله تعالى {وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون} فأخبر سبحانه أنهم بالصبر واليقين نالوا الإمامة في الدين ، وهؤلاء هم الذين استثناهم الله سبحانه من جملة الخاسرين وأقسم بالعصر الذي هو زمن سعي الخاسرين والرابحين على أن من عداهم فهو من الخاسرين ، فقال تعالى {والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ، ولم يكتف منهم بمعرفة الحق والصبر عليه حتى يوصي بعضهم بعضا به ويرشده إليه ويحضه عليه] الداء والدواء: ٩٣ ، وقد كان الإمام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله شديد العناية بذلك وله فيه فرائد نادرة ومقارنات بديعة وقد افرد فيه رسالته الشهيرة [مسائل الجاهلية] .

3- ثم يجب عليه أن يعرف مراتب أهل الباطل وكيف يتعامل مع كل مرتبة بما هي أهله و بما يناسب حاله وهذا هو "الفقه" الذي يتميز العالم عن الجاهل فقد ذكر الإمام الشاطبي رحمه الله]أن الله وضع الشريعة على أن تكون أهواء النفوس تابعة لمقصود الشارع [وهذا مقتضى التكليف فلا ينبغي أن يسلك المسلم عكس هذا فيطوع نصوص الشريعة لتوافق هواه فإن هذا عكس ما يريده الله سبحانه منه ، فالجهاد على سبيل المثال الذي هو شعبة من شعب الإيمان وهو ذروة سنام الإسلام كما صح عن الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم في هذا المقام الجليل مقام الجهاد إنما

تتحقق عبودية المسلم لربه سبحانه بتقديم مراد ربه منه على مراد نفسه وذلك بأن يعرف ما أوجبه الله عليه في وقته هذا بحسب إستطاعته وله ثواب ما قام به ويسقط عنه إثم ما عجز عنه ؛ أما أن يضع المسلم لنفسه هدفا -ولو كان في أصله مشروعا- ولكن فوق طاقته ولا يناسب حاله ثم يسلك أي وسيلة لتحقيق هدفه غير متقيد بضوابط الشريعة فهذا قد قدم مراد "نفسه "على مراد "ربه" فهو ممن إتخذ إلهه هواه وليست هذه طريقة "المسلمين" وإنما هذه طريقة "الثوريين العلمانيين" وليس هذا بدين "محمد" صلى الله عليه وسلم وإنما هو دين "ميكا فيلي" ، !فليس في الإسلام أن الغاية تبرر الوسيلة وإن كانت الغاية نبيلة مشروعة في أصلها فإن المسلم يتعبد الله بالوسائل كما يتعبده بالغايات {إهدنا الصراط المستقيم} فإن مات قبل إدراك الغاية يكون له ثواب ما سعى فيه ويسقط عنه إثم ما عجز عنه كما قال سبحانه {وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} ، وكل من سلك مسلكا غير شرعي فعمله باطل مردود لا يقبه الله منه كما قال الحق سبحانه {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ{ وقال النبي صلى الله عليه وسلم]من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد[رواه مسلم ومعنى "رد" أي مردود لا يقبله الله ،فالمستضعف والعاجز لا يجب عليهما الجهاد إذ لم يفرضه الله على المسلمين وهم مستضعفون بمكة وإنما فرضه بعدما تهيأت أسباب الجهاد وهذا الحكم غير منسوخ وإنما هو من الخيارات أمام المستضعفين ، وبالنظر إلى الواقع فإن أحوال "الجماعات الإسلامية" في معظم بلدان المسلمين أحوالها تتراوح بين العجز والإستضعاف والسوابق والتجارب المريرة التي خاضتها هذه الجماعات خير شاهد على ذلك ومن الغرور أن يرى الإنسان في نفسه ما ليس فيها فيكون]كلابس ثوبي زور[متفق عليه، وقد فتح الغرور على كثير من هذه الجماعات أبوابا من الشر ما كانت تخطر على بال حين عرضوا انفسهم للفتن فصار حالعم اليوم انهم

اصبحوا يعرفون ما كانوا ينكرونه بالأمس القريب خذلانا من الله لهم حين قدموا مراد انفسهم على مراده وإنتصروا لأهوائهم لأوائهم لا لدينه وقد روى إبن بطة رحمه الله عن إبن مسعود رضي الله عنه أنه دخل على حذيفة رضي الله عنه -أخبر الأمة بالمنافقين- فقال [إعهد إلي -اوصني-، فقال له: ألم يأتك اليقين؟ قال: بلى وعزة ربي! قال: فإعلم أن الضلالة حق الضلالة أن تعرف ما كنت تنكر وإياك والتولن فإن دين الله واحد!] الإبانة الكبرى: ١٨٩/١ ، قال وهيب بن الورد رحمه الله [بغلني أن عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ للحواريين قبل أن يرفع -يوصيهم- : يَا مَعْشَرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ نَهَاكُمْ عَنِ الزِّنَا وَنِعْمَ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ , فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ أَنْ تُحْدِثُوا بِهِ أَنْفُسَكُمْ , فَإِنَّمَا مَثَلُ مَنْ حَدَّثَ بِهِ نَفْسَهُ وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ مَثَلُ بَيْتٍ مِنْ خَزَفٍ يُوقَدُ فِيهِ فَإِنْ لَمْ يَحْتَرِقْ إِسْوَدَّ مِنْ دُخَانِهِ , وَيَا مَعْشَرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ نَهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِاللَّهِ كَاذِبِينَ , وَنِعْمَ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ , وَإِنِّي أَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِاللَّهِ كَاذِبِينَ أَوْ صَادِقِينَ , وَيَا مَعْشَرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي كَبَبْتُ لَكُمُ الدُّنْيَا عَلَى وَجْهِهَا فَلَا تُنْعِشُوهَا بَعْدِي فَإِنَّ مِنْ خَبَثِ الدُّنْيَا أَنْ يُعْصَيَ اللَّهُ فِيهَا , وَإِنَّ مِنْ خَبَثِ الدُّنْيَا أَنَّ الْآخِرَةَ لَا تُنَالُ إِلَّا بِتَرْكِهَا فَاعْبُرُوهَا وَلَا تُعْمِرُوهَا , أَلَا وَإِنَّ هَذَا الْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرٌّ , وَإِنَّ هَذَا الْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَبِيءٌ , وَتَرْكُ الْخَطِيئَةِ أَيْسَرُ مِنْ طَلَبِ التَّوْبَةِ , فَرُبَّ شَهْوَةِ سَاعَةٍ قَدْ أَوْرَثَتْ أَهْلِهَا حُزْنًا طَوِيلًا , وَيَا مَعْشَرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي قَدْ بَطَحْتُ الدُّنْيَا عَلَى وَجْهِهَا وَأَقْعَدْتُكُمْ عَلَى ظَهْرِهَا , فَلَا يُنَازِعُنَّكُمْ فِيهَا إِلَّا الْمُلُوكُ وَالنِّسَاءُ , فَأَمَّا الْمُلُوكُ فَخَلُّوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُلْكِهِمْ وَأَمَّا النِّسَاءُ فَاسْتَعِينُوا عَلَيْهِنَّ بِالصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ] الحلية لأبي نعيم: 11908 ، قال الفضيل بن عياض رحمه الله : [مالكم وللملوك؟ ، ما أعظم منهم عليكم ! ، قد تركوا لكم طريق الآخرة فإركبوا طريق الآخرة ..ولكن لا ترضونه !! ، تعيبونهم على الدنيا وتزاحمونهم عليها حبا لها؟! ، لا ينبغي للعالم أن يرضى بذلك لنفسه] حلية الأولياء: ١٠٥\٨، وقد أدركنا الصالحين من شيوخنا إذا تُكلم عندهم في "السياسة المعاصرة"

ينهون عن ذلك ويسمونه (علم إبليس) يقولون [اتركونا من علم إبليس وأعطونا ما ينفعنا] .

والخلل إنما يدخل على الناس من إحدى هذه الثلاث إفراطا وتفريطا !!

المفتاح الخامس .. (ضبط المحكمات) -المنهج العلمي- !

{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}

-المحكم والمتشابه في الكتاب والسنة-

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه العظيم "كشف الشبهات" [اعْلَمْ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ مِنْ حِكْمَتِهِ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيّاً إِلاَّ جَعَلَ لَهُ أَعْدَاءً كَما قالَ تَعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنْسِ

وَالجِنّ} الآية، وَقَدْ يَكُونُ لأَعْدَاءِ التَّوحِيدِ عُلُومٌ كَثيرةٌ وكُتُبٌ وحُجَجٌ كَما قالَ تَعالى: {فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُم مِنَ العِلْمِ وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون} .

إِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ، وَعَرَفْتَ أَنَّ الطَّرِيقَ إِلى اللهِ لابُدَّ لَهُ مِنْ أَعْدَاء قاعِدِينَ عَلَيْهِ أَهْلِ فَصَاحةٍ وَعِلْمٍ وَحُجَجٍ فَالواجِبُ عَلَيْكَ: أَنْ تَعلَّمَ مِن دِينِ اللهِ -المحكمات- ما يَصِيرُ سِلاحاً تُقَاتِلُ بِهِ هَؤُلاءِ الشياطينَ الَّذِينَ قَالَ إِمَامُهُمْ ومُقَدَّمُهُم لِرَبِّكَ عَزَّ وَجَلَّ {لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِيْنَ} -وقد سبق الكلام عن (الحمد) وبيان معناه-، وَلَكِنْ إن أَقْبَلْتَ إِلى اللهِ تعالى وَأَصْغَيْتَ إِلى حُجَجِ اللهِ وَبَيِّنَاتِهِ فَلا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ {إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيْفاً} .

وَالعَامِّيُّ مِنَ المُوَحِّدِينَ يَغْلبُ أَلفاً مِن علماءِ هؤلاءِ المُشرِكِينَ كما قالَ تعالى {وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الغَالِبُونَ}، فَجُنْدُ الله تعالى هُمُ الْغَالِبُونَ بِالحُجَّةِ وَاللِّسَانِ كَمَا أنهم هُم الغَالِبُونَ بِالسَّيْفِ وَالسِّنَانِ، وَإِنَّما الخَوْفُ عَلى المُوَحِّدِ الَّذي يَسْلُكُ الطَّرِيقَ وَلَيْسَ مَعَهُ سِلاحٌ!

وَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا بِكِتَابِهِ الَّذي جَعَلَهُ {تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ}، فَلا يَأتِي صَاحِبُ بَاطِلٍ بِحُجَّةٍ إِلاَّ وَفي القُرْآنِ ما يَنْقُضُها وَيُبَيِّنُ بُطْلانَهَا كَما قالَ تَعالى: {وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً} قَالَ بَعْضُ المُفَسِّرِينَ: هَذِهِ الآيَةُ عَامَّةٌ في كُلِّ حُجَّةٍ يَأتي بِها أَهْلُ البَاطِلِ إِلى يَوْمِ القِيَامةِ.

وَأَنَا أَذْكُرُ لَكَ أشْياء مِمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى في كِتَابِهِ جَوَاباً لِكَلامٍ احْتَجَّ بِهِ المُشْرِكُونَ في زَمَانِنَا عَلَيْنَا فَنَقُولُ: جَوَابُ أَهْلِ البَاطِلِ مِنْ طَرِيقَيْنِ (مُجْمَل) وَ (مُفَصَّلٍ) :-

أَمَّا المُجْملُ: فَهُوَ الأَمْرُ العَظِيمُ وَالفَائِدةُ الكَبِيرَةُ لِمَنْ عَقَلَها وَذَلِكَ قولُهُ تَعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} الآية، وَقَدْ صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ

قالَ: (إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ما تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ).

فإذا ذكر لك رجل من أهل الباطل شيئا من كتاب الله أو ذَكَرَ كَلاماً لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَدلُّ بِهِ على بَاطِلِهِ وَأَنْتَ لا تَفْهَمُ مَعْنى الْكَلامِ الَّذي ذَكَرَهُ فَجَاوِبْهُ بِقَوْلِكَ: إِنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَ لنا في كِتَابِهِ أَنَّ الَّذِينَ في قُلُوبِهِم زَيْغٌ يَتْرُكُونَ المُحْكَمَ ويَتَّبِعونَ المُتَشَابِهَ، وَمَا ذَكَرْتُه لَكَ مِنْ الحق وهَذَا أَمْرٌ مُحْكَمٌ لا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يُغَيِّرَ مَعْنَاهُ،

وَمَا ذَكَرْتَه لي أَيُّها المُشْرِكُ مِن القُرآنِ أَوْ كَلامِ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا أَعْرِفُ مَعْنَاهُ وَلكِنْ أَقْطَعُ أَنَّ كَلامَ اللهِ لا يَتَناقَضُ وَأَنَّ كَلامَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يُخَالِفُ كَلامَ اللهِ عزَّ وجلَّ!

وَهَذَا جَوَابٌ جَيِّدٌ سَدِيدٌ وَلَكِنْ لا يَفْهَمُهُ إلاَّ مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ تعالى ولا تَسْتَهْوِنْهُ فَإِنَّهُ كما قَالَ تَعالى: {وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}] إنتهى بتصرف .

-المحكم والمتشابه في كلام العلماء-

وهذا "المنهج العلمي" -التمسك بالمحكمات- ليس مقصورا على التعامل مع نصوص الكتاب والسنة وحدها بل هو في التعامل مع كلام أهل العلم وآثار السلف أولى منه في نصوص الوحي! ، خاصة منهم من كان من أهل التجديد ممن جاءوا في زمن غربة صار المعروف فيه منكرا والمنكر معروفا فهؤلاء الواجب رد متشابه كلامهم إلى محكمه ومتقدمه إلى متأخره إذ من المعلوم ان الرسوخ لا يأتي جمله واحدة وإنما بطول المعالجة
*ومن هنا لم يبعث الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم إلى الناس فور نزول الوحي عليه وإنما أبقاه بعد ذلك مدة حتى يستقر ما عرفه من الحق في قلبه ويستحكم فيه ثم بعد ذلك أمر بالتبليغ قال الإمام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله [في اول (إقرأ) إبتداء النبوة وأول (المدثر) إبتداء الرسالة، وفي السورتين شاهد لقوله "العلم قبل القول والعمل"]
التفسير:٣٦٧* ، وقد هلك أقوام بأخذهم بكمتشابه كلام أهل العلم وبما

قالوه قبل الرسوخ وتحرير المسائل وقد قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه [ثلاثا يهدمن الدين: زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، وأئمة مضلون] "جامع بيان العلم وفضله: ٢٢٣/٢" وقال أبو الدرداء رضي الله عنه [إنما أخشى عليكم زلة العالم أو جدال المنافق بالقرآن، والقرآن حق وعلى القرآن منار كمنار السبيل] وهي "المحكمات" فمن أخذ بها عصم، وقد كان من فقه السلف رحمهم الله وبعد نظرهم كراهة التدوين ووضع الكتب لأجل ذلك .

-الاخذ بالحق والإعراض عن الباطل-

والمقصود ان هذا المنهج -التمسك بالمحكمات والعض عليها بالنواحذ- عصمة لمن اخذ به في جميع ابواب الحياة!، والإنسان غير مكلف بمعرفة الجواب على كل إشكال وشبهة وإنما هو مأمور بمعرفة الحق والتمسك به والإعراض عن الباطل وأهله قال الإمام مالك رحمه الله [أوكلما جاءنا رجل اجدل من رجل تركنا ما نزل به جبريل عليه السلام على محمد صلى الله عليه وسلم لجدله؟!] "الحليه: ٣٥٤/٦" وقال لرجل من أهل الأهواء جاءه ليجادله [أما أنا فعلى بينة من ربي، وأما انت فشاك، فإذهب إلى شاك مثلك فخاصمه] "الإبانة لإبن بطة".

-الإمام مالك وكتابه [الموطأ] -

والإمام مالك رحمة الله من أشد الناس عناية بهذا الباب -ضبط المحكمات- فق وضع كتابه الجليل [الموطأ] لأجل ذلك حيث جمع فيه محكمات نصوص الكتاب والسنة والآثار التي كان عليها العمل عند السلف والجاد المسلوكة عندهم المشتهرة بينهم بغير نكير -الصراط المستقيم-! *وانظر في ذلك رسالة نفيسة لإبن تيمية في (الفتاوى: ١٦٣/٢٠) بين فيها صحة مذهب اهل المدينة وإحكامه!* فقد قال علي بن الحسين رحمه الله ورضي عن أبيه [ليس مالا يعرف من العلم، إنما العلم ما عرف وتواطأت عليه الألسن] "سير أعلام النبلاء: ٣٩١/٣" قال الإمام مالك [شر العلم الغريب، وخير العلم الظاهر الذي قد رواه الناس]

"تهذيب المدارك: ١/١٨٤"، والإمام مالك جمع كتابه هذا في إحدى عشرة سنة وبقي يعيد النظر فيه عشرين أخرى ويعرضه على أهل العلم فيثبت فيه ما وافقوه عليه ويحذف منه المسائل التي ظهر له فيها خلاف معتبر يخرجها عن كونها "محكمة"، وقد كان رحمه الله شديد التحرز في ذلك حتى قيل: لو عاش مالك أطول من ذلك لما بقي في الموطأ شيء لكثرة ما يحذف! كل ذلك منه رحمه الله حرصا على (ضبط المحكمات) فخرج كتابه هذا من بين فرث ودم لبنا خالصا، وحين شرع في تأليفه وصرف همته إليه قيل له: إن الناس قد سبقوك إلى التأليف فما الفائدة من كتابك هذا؟ فقال كلمته المشهورة: [ما كان لله يبقى]! *وقد كان العلامة عبدالرزاق عفيفي رحمه الله -كما يروي عنه الشيخ علي اليحيي- يرى ان حادثة مكتبة بغداد في زمن المغول وما لحقها من زحراق وإغراق كان فيه منّة من الله من حيث يراها الناس نقمة وان الله ابقى للامة ما تحتاج وأذهب الباقي!* فكأنما ألقيت تلك الكتب التي سبقته في الآبار ولم يبق منها إلا موطأ مالك فهو أقدم كتاب وصل إلينا لأن الأمة تلقته بالقبول فأقبلت عليهزوإعتنت به ورحل أهل العلم من مشارق الأرض ومغاربها إلى مالك لأخذه عنه حتى قال الإمام الشافعي رحمه الله [ما بعد كتاب الله كتاب أصح من كتاب مالك] لأنه لم يعن فيه ب"صحة الأسانيد" فقط وإنما جمع من النصوص "محكماتها" -صحة المتون- التي إعتمدها الصحابة والتابعين وكان عليها عملهم فهو كتاب عمل لا مجرد نظر ومن هنا قدمه كثير من أهل العلم على الصحيحين!، وقد شرحه شيخنا هبدالرحمن الحجي شرحا نفيسا خدم فيه مقصد مؤلفه -ضبط المحكمات- وتمم فوائده، فإرجع إليه فإنه في غاية الجودة وإعلم أنك لما فيه من (تربيه منهجية) أحوج منك إلى (بحث المسائل العلمية) فإن الشريعة الإسلامية كالعقد المنتظم وليست مسائل مبعثرة يستقل بعضها عن بعض وإنما ينظم مسائلها في سلك واحد [ضبط المحكمات] قال تعالى {إن الذين فرقوا دينهم وكانو شيعا لست منهم في شيء} .

وأحكم المحكمات: القضايا التي تناولتها سورة الفاتحة، ولذلك أوجب الله قراءتها في كل صلاة حتى تستقد معانيها في النفوس قال الشيخ عابد السفياني حفظه الله [تجب قراءة الفاتحة في كل صلاة تعبدا لله ب"الحق"] !!.

-التمذهب-

و مما يلحق بهذا الباب أيضا قضية (التمذهب): المسألة التي يعدها كثير من أهل زماننا من المشكلات رغم كون عمل العلماء عبر تاريخ الامة كان مستقرا عليها، فقد كان السلف رضوان الله عليهم يعلمون أن العامة لا بد لهم من مذهب يتبعونه وإمام يقلدونه وإلا إضطربت عليهم المسائل بكثرة الإختلاف وتنوع الترجيحات فصاروا بين "شاكٍ" و "متشهي" وهذا من أعظم الفتة في الدين والفتح لأبواب الزندقة قال الشاطبي في الموافقات [(الترجيح) بما يؤدي إلى إفتراق الكلمة وحدوث العداوة والبغضاء ممنوع]!، قال الإمام مالك رحمه الله [لما حج المنصور دعاني فدخلتُ عليه، فحادثته، وسألني فأجبته. فقال: عزمت أن آمر بكتبك هذه -يعني المُوطَّأ- فتنسخ نسخاً، ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين بنسخة، وآمرهم أن يعملوا بما فيها، ويدعوا ما سوى ذلك من العلم المحدث، فإني رأيت أصل العلم رواية أهل المدينة وعلمهم. قلت: يا أمير المؤمنين، لا تفعل، فإن الناس قد سيقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سيق إليهم، وعملوا به، ودانوا به، من اختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وغيرهم، وإن ردهم عما اعتقدوه شديد، فدع الناس وما هم عليه، وما اختار أهل كل بلد لأنفسهم. فقال: لعمري لو طاوعتني لأمرت بذلك] "سير أعلام النبلاء" وهذا من عظيم فقهه رحمه الله وسده لذرائع الفتن والحرص على إحكام دين العامة وحفظه.
وما يذكر من قول الإمام أحمد "لا تقلدني ولا تقلد مالكا ولا الشافعي ولا

الأوزاعي ولا الثوري وخذ من حيث أخذوا" فإنما قاله لأبي داود الذي بلغ رتبة الإجتهاد ولم يقله لكل أحد فحمله على غير اهل الإجتهاد من تحريف الكلم عن مواضعه!، والإمام أحمد نفسه حين إعترض عليه رجل بحديث قال له يزجره [أوصبيان نحن؟!] ليعلمه أن من لم يبلغ رتبة الإجتهاد ليس له أن يتطاول على الأئمة ويظن في نفسه انه اعلم بكتاب الله وسنة رسوله منهم وأنه فقه من نصوص الشرع ما لم يفقهوه كما يفعل كثير من أهل زماننا ممن ترك مذاهب الأئمة الأربعة (ابو حنيفة) و(مالك) و(الشافعي) و(احمد) وإبتدع مذهبا خامسا سماه "المذهب الراجح"!

-شيخ الإسلام إبن تيمية-

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله الذي ينتسب إليه كل من يرى الخروج عن المذاهب الأربعة من أهل زماننا بقي عمره كله يفتي الناس على مزهب الإمام احمد ولم يخرج عنه إلا في آخر حياته حين رسخت قدمه في العلم وصار للناس إماما كما ذكر ذلك عنه تلميذه الذهبي، ولا يلزم من ذلك إصابته فيما خالف فيه فقد قال عبيدة السلماني لسيدنا علي بن ابي طالب رضي الله عنه حين إجتهد في مسأله كان فيها على مذهب عمر ثم خرج عنه [يا اكير المؤمنين رأيك مع رأي عمر في الجماعة احب إلينا من رأيك وحدك في الفرقة] فرجع علي إلى مذهب عمر حين سمع مقالته هذه، ولما الف شيخ الإسلام في الفقه إنما ألف على المذهب، وقد قال تلميذه البزار [إلتمست منه تاليف نص في الفقه يجمع إختياراته وترجيحاته ليكون عمدة في الإفتاء فقال لي ما معناه: الفروع امرها قريب ومن قلد المسلم فيها احدا من العلماء المقلدين جاز له العمل بقوله ما لم يتيقن خطأه] "الأعلام العليه: ٣٥" ومعنى (يتيقن خطأه) أي يكون اهلا للإجتهاد ويطيل النظر بغير تعجل ويستفرغ الوسع في بحث مسألة ما وتتبع كلام أهل العلم فيها حتى يصل إلى "اليقين"، وقد ذكر الإمام احمد عن نفسه انه بقي يتفكر في مسألة عشر سنين لا يقدر على ان يقطع فيها بقول وهو الذي كان يحفظ ألف ألف -مليون- حديث!

.

والمقصود ان شيخ الإسلام رحمه الله حين يخرج عن المذاهب الأربعة في بعض المسائل يفعل ذلك لأهليته للإجتهاد والنظر في نصوص الكتاب والسنة إستقلالا فلا يجوز لغيره ان يفعل فعله حتى يبلغ مرتبته -وهذا أمر يجمع عليه العقلاء في مختلف العلوم والصناعات!- وشيخ الإسلان نفسه قد قال [قول القائل: لا اتقيد باحد هؤلاء الأربعة -الأئمة- إن اراد به انه لا يتقيد بواحد بعينه دون الباقين فقد احسن بل هو الصواب في القولين، وإن أراد اني لا اتقيد بها كلها بل أخالفها كلها فهو مخطئ قطعا إذ الحق لا يخرج عن هذه الاربعة في عامة الشريعة] "مختصر الفتاوى المصرية: ٦١"، ومن هنا كان الإمام إبن رجب رحمه الله -وهو تلميذ إبن القيم الذي هو اجل تلاميذ شيخ الإسلام- يحبس من يفتي بفتوى إبن تيمية في الطلاق والتي خالف فيها المذاهب الأربعة وإمتحن لأجلها وقد الف إبن رجب في ذلك رسالته الجليلة [الرد على من إبتع غير المذاهب الاربعة] هذا مع شدة محبته لشيخ الإسلام وتعظيمه له!، وعلى هذا كان العلامة محمد بن إبراهيم رحمه الله -خاتمة أئمة الدعوة النجدية- يشدد في إلتزام المذهب في الفتوى والقضاء ويعزر من يخرج عنه ضبطا لهذا الباب وصيانة له عن عبث العابثين وعن الفوضى الفقهية المعاصرة .

-المذاهب الاربعة من المحكمات التي يجب التمسك بها-

وخلاصة القول أن المذاهب الأربعة وضعها الأئمة الراسخون وتوارد عليها الآلاف من اهل العلم ضبطا وتصحيحا وتنقيحا حتى أحكمت وصارت كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا فالتمسك بها عصمة لمن أراد الله عصمته، ومن شاء أن يستزيد في هذا الباب فليرجع إلى دورة "مدخل إلى علوم الفقه" للشيخ محمد عبدالواحد الحنبلي.

المفتاح السادس .. (الطائفة المنصورة) -المنهج العملي- !

{صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ}

ف"الصراط" حق في نفسه ولكن الله جعل وجود هؤلاء في هذا السبيل دليل على أنه الحق وأقام بهم الحجة على الخلق! ، قال تعالى {وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۙ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ{ فإستدل على الحق -الإيمان- بدعوة الرسول له! وحاجج قومه بذلك وأنكر عليهم عدواهم عما يدعوهم إليه محمد صلى الله عليه وسلم مع ما يعرفون من صدقه وأمانته وتقواه فعن إبن عباس رضي الله عنه قال [لَمَّا نَزَلَتْ: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقْرَبِينَ}، صَعِدَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ علَى الصَّفَا، فَجَعَلَ يُنَادِي:يا بَنِي فِهْرٍ، يا بَنِي عَدِيٍّ - لِبُطُونِ قُرَيْشٍ - حتَّى اجْتَمَعُوا فَجَعَلَ الرَّجُلُ إذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أنْ يَخْرُجَ أرْسَلَ رَسولًا لِيَنْظُرَ ما هُوَ، فَجَاءَ أبو لَهَبٍ وقُرَيْشٌ، فَقالَ: أرَأَيْتَكُمْ لو أخْبَرْتُكُمْ أنَّ خَيْلًا بالوَادِي تُرِيدُ أنْ تُغِيرَ علَيْكُم، أكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟ قالوا: نَعَمْ، ما جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إلَّا صِدْقًا، قالَ: فإنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ فَقالَ أبو لَهَبٍ: تَبًّا لكَ سَائِرَ اليَومِ، ألِهذا جَمَعْتَنَا؟ فَنَزَلَتْ: {تَبَّتْ يَدَا أبِي لَهَبٍ وتَبَّ ما أغْنَى عنْه مَالُهُ وما كَسَبَ}] متفق عليه ، ومن هذا القبيل أيضا قوله سبحانه وتعالى في سورة الرعد {وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ{ وقوله {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ} فهذا كله من الإستدلال على الحق بأهله!

-إحياء الحق!-

والشاهد عندنا هنا قوله {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} فإنه بعد أن عرف الصراط بأنه مستقيم في ذاته عرفه برجاله الذين يسلكونه ، ومن قضايا القرآن الكبرى التي يحرص عليها: جعل الحق حيا يسير بين الناس فيرونه ويسمعونه ويكلمونه وذلك من خلال أتباعه الناصرين له الثابتين عليه حتى صاروا علامة عليه [خلفاء الرسول في أمته ، المحيون لما مات من سنته ، فبهم قام الكتاب وبه قاموا ، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا] شرح الطحاوية لإبن أبي العز .

ولذلك يخطئ من يريد أن يجعل الحق حالة ذهنية لا رجال لها على أرض الواقع فقد قال سبحانه وتعالى في سورة الفرقان ذاكرا صفات المؤمنين {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} إذ وجود القدوة في الخير ضرورة من ضرورات الحياة فلا يصبح الحق واقعا حتى يكون له رجاله الذين يخوضون معاركه على سائر الميادين فيصبحوا رموزا له وأئمة يقتدى بهم ويلتف أهل الإيمان حولهم وينتسبوا إليهم ، ومن هنا قال ربنا جل وعلا في سورة البقرة {آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ{ فلم يكتف بقوله "آمنوا" حتى أرجع الإيمان إلى مثاله الحي! والمنافقون لسفاهتهم لم يقبلوا بهذا المنهج فقالوا {قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ{ ، وهذا الخطاب كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم والذين أرجع الله الإيمان إليهم وأمر بالإقتداء بهم وجعلهم منارات في طريق الحق حتى صاروا هم الحق وصار الإيمان الذي لا يقبل الله غيره هو ما كانوا عليه هم {السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ{ ولذلك قال في تتمة الآية {وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{ ، وفي الحديث [في كل قرن سابقون] رواه ابو نعيم في الحلية فإن "الإنسان" بإيمانه هو مقصد الخلق والوجود كما قال تعالى {وما خلقت الجن والإنس إالا ليعبدون} ولذلك يرتفع حملة الشعلة في كل زمان ويرتقون حتى يكونوا هم أنفسهم جزءا من الإيمان وشرط لصحته، ولأجل هذه القضية -كون الدين تمثل في أشخاص أهله القائمين به- قال عليه الصلاة والسلام في دعائه يوم بدر [)اللَّهمَّ إنْ تهلِكْ هذه العصابةُ مِن أهلِ الإسلامِ لا تُعبَدْ في الأرضِ) فما زال يهتِفُ ربَّه جلَّ وعلا مادًّا يدَيْهِ مستقبلَ القِبلةِ حتَّى سقَط رداؤُه عن مَنكِبِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم] رواه مسلم ، فربط عليه الصلاة والسلام "الدين" بأشخاص "الصحابة" رضوان الله عليهم الذين هم (العصبة) القائمة بأمر الله في زمانهم فكانوا هم الطائفة المنصورة .

-الطعن في الرموز-

ولما تمثل "الإسلام" في أشخاصهم الكريمة رضوان الله عليهم صار الطعن فيهم كفر بالله لأنه في حقيقته طعن في الدين الذي يحملونه قال جل وعلا في حق من إستهزأ بعلماء الصحابة في غزوة تبوك {قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (65) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} فجعل الطعن فيهم إستهزاءا به جل وعلا وبآياته وبرسوله! ، وهذا الأمر ليس حكرا على الصحابة رضوان الله عليهم بل يقال مثله في "السابقين" من كل قرن ولذلك لَمَّا سُئِلَ ابنُ المبارك عن (الجماعة) التي ينتسب لها اهل الحق بقولهم "أهل السنة والجماعة"؟ قال [أبو بكر وعمر! ، فقيل له: قد مات أبو بكر وعمر؟، قال: ففلان وفلان! ، قيل: مات فلان وفلان؟ ، الى أن قال: (أبو حمزة السكري جماعة) وأبو حمزة يومئذ حي] وهذا أثر عظيم يبين ما كان عليه السلف من منهج في هذا الباب:
فسؤالهم لإبن المبارك عن "الجماعة" وعدم الإكتفاء منه بذكر من مات من الرموز -حتى لا يكون الحق مجرد حالة ذهنية لا واقع له على الأرض- يبين أن هذه المسألة كانت عندهم من أوضح المسائل ولهذا قال إبن تيمية رحمه الله في قوله عليه الصلاة والسلام (حب الأنصار إيمان وبغضهم نفاق): [وهذا في أنصار الدين في كل زمان] ! ، وقد كفر أئمة الدعوة من سب الإمام محمد بن عبد الوهاب وأتباعه وطعن في دينهم وعقيدتهم -التي هي محض التوحيد- قال الشيخ عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب [فمن أنكر ذلك وسبه وسب أهله وسماهم بالخوارج فهو الكافر حقا الذي يجب قتاله حتى يكون الدين كله لله بإجماع] رسالة "الكلمات النافعة في المكفرات الواقعة" ، قال تعالى {وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ (وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ) فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُون} فتأمل كيف لم يقل "طعنوا في دين الله" !! .

وقد عد العلماء من فضائل الأندلس أنه لم يذكر على منابرها قط أحدا من السلف إلا بخير كما ذكره صاحب "المعجب في تلخيص اخبار المغرب".

ولأجل هذه المسألة -جعل الواقع حيا- لم ينزل الله سبحانه الوحي على الناس من السماء في كتب مسطورة بل أنزله على الرجال وأرسلهم به لا لشيء إلا ليكونوا أئمة للناس ويتحقق التأسي بهم قال تعالى {لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} وقال {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ} ، بل أمر الله عز وجل نبيه عليه الصلاة والسلام بالتأسي بمن سبقه من الأنبياء في أكثر من موضع كقوله {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} وقوله {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ}، ومن هنا دائما ما نجد القرآن بعد بيانه للحق في نفسه ينقله إلى الواقع من خلال رجاله قال تعالى {وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ (اتَّبِعُونِ) أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ} وقال مخبرا عن رسالة سلميان عليه السلام لسبأ {إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلا تَعْلُوا (عَلَيَّ) وَ(أْتُونِي) مُسْلِمِينَ}، وهنا في سورة الفاتحة كما رأينا عرف ربنا الحق في نفسه فقال {الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} ثم جعل له واقعا من المثال ليتبع فقال {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} ، وعليه فإن قول السلف: "إعرف الحق تعرف أهله" لا يفهم منه عزل الحق عن الواقع وفصله عنه بجعله حالة ذهنية مجردة -عى طريقة فلسفة اليونان- لا وجود لها في غير الأخيلة! وإنما معناها انك إذا عرفت الحق في نفسه يجب عليك تنزيله على الواقع بالبحث عن أهله والإنتساب إليهم والإقتداء بهم ! *إعلم رعاك الله أن مرادنا ب"الإنتساب" هنا هو الإنتساب السني الذي هو بمعنى المحبة والموالاة والإنتصار لأئمة الهدى والذب عنهم والتمذهب بمذاهبهم كما كان يفعل السلف مع أئمتهم حتى كانو إذا تكلموا في الإعتقاد نصوا على انها عقيدة الأئمة فلان وفلان وعدوهم ولا يكتفون بذكر أنها "السنة" دون عد رجالها، حتى كان كثير منهم إذا أراد بيان إعتقاده نص على إنه على "إعتقاد الإمام أحمد بن حنبل"!، أما التحزبات البدعية والجماعات المحدثة المنبتة عن الأمة والمنحازة دونها فزن الله عز وجل يقول فيها {إن الذين فرقوا دينهم وكانو شيعا لست منهم في شيء} وإنظر إن شئت في ذلك رسالة للشيخ بكر ابو زين رحمه الله بعنوان [حكم الإنتماء إلى الفرق والاحزاب والجماعات الإسلامية]* .

-لا تخلو الدنيا من قائم بالحق-

وإعلم أن وجود أهل الحق ورموز الدين كائن منذ وجدت البشرية إذ لم ينزلوا إلى الأرض إلا وفيهم نبي وهو أبونا آدم عليه السلام وفي الحديث أنا ابا ذر رضي الله عنه قال [يا نبي الله أونبي كان آدم؟ قال: نعم نبي مكلم] رواه احمد، وقد أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن هذا الأمر باق إلى قيام الساعة [لا تزالُ طائفةٌ من أمَّتي ظاهرين على الحقِّ قاهرين لعدوِّهم لا يضُرُّهم من خذلهم أو خالفهم حتَّى تقومَ السَّاعةُ] رواه إبن حبان ، فلا يخلوا زمان من أهل الحق وإنما الواجب عليك البحث عنهم قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}!

-حقيقة الهجرة-

وقد ذكر أهل العلم ان سبب تسمية سورة التوبة ب"الفاضحة" هو أنه جل وعلا أعلن في أول آية منها البراءة من اهلي الباطل ففيه أن من أراد الدخول في الإسلام بعدما كان مشركا لا توبة له حتى يتبرأ من المشركين ويعلن العداوة لهم وبذلك يفضح الله المنافقين الذين لهم باطن يخالف ظاهرهم قال عليه الصلاة والسلام [لا يَقبَلُ اللهُ مِن مُشرِكٍ بعدَما أسلَمَ عملًا حتى يُفارِقَ المُشركينَ إلى المُسلِمينَ] رواه احمد ، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلا من أهل اليمن هاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إني قد هاجرت؟ فقال عليه الصلاة والسلام [قد هجَرْتَ الشِّرْكَ !] رواه ابن حبان ، فالإيمان بالله يعني أوله رفض الآلهة الباطلة لأن شعار الإيمان هو كلمة التوحيد "لا إله إلا الله" وشقها الأول الرفض -لا إله- أي الكفر بالطاغوت و مصارعة الواقع الجاهلي وذلك لا يكون إلا مفارقة أهل الباطل والإنحياز عنهم إلى اهل الحق ، ولذلك كان من مهام الدعاة والعلماء الكبرى رفع راية يؤوب المؤمنون إليها ليس فقط في المفهوم والتجريد -أي الذهن- بل لا بد من بقعه حقيقية من أشخاص وألوية وما أمكن من أماكن وهو تطبيق لقوله تعالى لموسى عليه السلام وهارون فيما أمرهم به {وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ

وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} وفي الحديث [كان إبراهيم أول من ضيف الضيف] وقد إتخذ النبي صلى الله عليه وسلم بمكة "دار الأرقم" ليجتمع فيها هو وأصحابه فهذه كلها هجرات مادية تتناسب مع حال الفئة المؤمنة وتمكنها في الأرض!، وعلى هذا كان عمل من سبقنا من اهل التوحيد من اتباع دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله حين أسسوا "الهجر" وكانت بدايتها خيم صغيرة ثم لم تلبث أن أصبحت قرى كبيرة يسكنها الآلاف من أهل الإيمان العاملين لهذا الدين، وقد قال عليه الصلاة والسلام [لا تَنقطِعُ الهِجرةُ حتى تنقَطِعَ التَّوبةُ ، ولا تَنقطِعُ التَّوبةُ حتى تَطلُعَ الشَّمسُ مِن مَغرِبِها] رواه أحمد ، فربط بين "الهجرة" و "التوبة" للمعنى الذي ذكرنا من كون مفارقة اهل الباطل وهجرهم والإنحياز إلي أهل الحق شرط من شروطها ، ومن هنا كانت نسبة أهل الحق التي ينتسبون إليها هي (أهل السنة والجماعة) ف"السنة" تمثل الحق في نفسه -المنهج العلمي- و"الجماعة" تمثل واقعه على الأرض من خلال رجاله قديما وحديثا -المنهج العملي- ، فأهل السنة والجماعة هم المتبعين للحق المنحازين لأهله !.

والهجرة بهذا المعنى العام واجبة على كل إنسان وهي باقية إلى قيام الساعة فيجب على كل أحد أن يهجر الشرك وأهله إلى التوحيد وأهله ويهجر البدع وأهلها إلى السنة وأهلها فإن هذا هو معنى (شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله) فلا يكون المرء محققا لها حتى يفعل ذلك قال الإمام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى في "مجموعة التوحيد" [فلا بد للمسلم من التصريح بأنه من هذه الطائفة المؤمنة حتى يقويها ويتقوى بها ويفزعون الطواغيت الذين لا يبلغون الغاية في العداوة حتى يصرح لهم أنه من هذه الطائفة المحاربة لهم] *ومن عجيب ما يروى في هذا الباب ما ذكره الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله في ذكرياته عن الاستاذ المودودي انه حدثه عن رجل هندوسي تاجر كان يعامل المسلمين هناك ويعاملونه فكان خصام بينه وبين احد التجار "المسلمين" فاعلن في المسجد ان فلانا -الهندوسي- "وهابي" فقاطعوه حتى اختلت تجارته ولم يخلصه إلا أن جاء إلى مسجدهم فاعلن أنه تاب من "الوهابية" ورجع إلى بوذيته فرجعوا إلى معاملته!! (الذكريات:٣/٥٦)* وفي رسالة "ثماني

الحالات" عند قوله تعالى {وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} قال رحمه الله [لا بد من تصريحه بأنه من هذه الطائفة ولو لم يقض هذا الغرض إلا بالهرب عن بلاد فيها كثير من الطواغيت الذين لا يبلغون الغاية في العداوة حتى يصرح بأنه من هذه الطائفة المحاربة لهم]، ومن عظيم فقه الصحابة رضوان الله عليهم أنهم حين أرادوا التأريخ لهذه الأمة إبتدأوا تاريخها بهجرة رسولها صلى الله عليه وسلم ولم يبتدئوا ذلك بمولده عليه الصلاة والسلام ولا بنزول الوحي عليه لأنهم -رضوان الله عليهم- كانوا يعلمون ان هذا الدين إنما ولد وصار له واقعه في الوجود ورفعت له الراية التي يأوي إليها أهل الإيمان بهجرته عليه الصلاة والسلام وأما قبلها فقد كان هذا الدين في رحم التخلق حالة ذهنية في عقول أصحابها لا أثر لها في دنيا الناس *فائدة: يظن اكثير من الناس أن قضيةالتاريخ عند الأممجرد عملية حسابيةمحضة غير مبنية على عقائد هذه الأمم وتصوراتها، ولذلك يتساهلون في زعتماد هذه التواريخ الغير إسلامية بل ويتجاوز بعضهم ذلك إلى الإحتفال بها جهلا بحقيقتها، فإن النصارى لما كانوا أهل غلو في الرجال كما قال الله عنهم {إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح إبن مريم} إبتدأوا تاريخهم بميلاد عيسى عليه السلام والذي كان قبل اكثر من ألفي سنة، وأما اليهود فلأنهم كما وصفهم الله {احرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود احدهم أن يعمر الف سنة} إبتدأوا تأريخهم ب"يوم العالم" أي اليوم الذي اتم الله فيه خلق فيه الدنيا وذلك قبل نحو ٥٨٠٠ سنة فيما يزعمون!* .

والمقصود أن المؤمن لا بد أن ينتسب إلى أهل الحق الذين يخوضون معركته مع الباطل في زمانه وإذا فعل ذلك فحينئذ لابد أن يعاديه أهل الباطل كما قال ورقة بن نوفل رضي الله عنه للنبي عليه الصلاة والسلام [ما جاء أحد قط بمثل ما جئت به إلا عودي] ! ، قال إبن القيم رحمه الله بعد أن عد "عقبات الشيطان السبعة" في طريق المؤمن [فَإِذَا نَجَا مِنْهَا لَمْ يَبْقَ هُنَاكَ عقبة يَطْلُبُهُ الْعَدُوُّ عَلَيْهَا سِوَى وَاحِدَةٍ لَا بُدَّ مِنْهَا، وَلَوْ نَجَا مِنْهَا

أَحَدٌ لَنَجَا مِنْهَا رُسُلُ اللَّهِ وَأَنْبِيَاؤُهُ، وَأَكْرَمُ الْخَلْقِ عَلَيْهِ، وَهِيَ عقبة تَسْلِيطِ جُنْدِهِ عَلَيْهِ بِأَنْوَاعِ الْأَذَى، بِالْيَدِ وَاللِّسَانِ وَالْقَلْبِ، عَلَى حَسَبِ مَرْتَبَتِهِ فِي الْخَيْرِ، فَكُلَّمَا عَلَتْ مَرْتَبَتُهُ، أَجْلَبَ عَلَيْهِ الْعَدُوُّ بِخَيْلِهِ وَرَجِلِهِ، وَظَاهَرَ عَلَيْهِ بِجُنْدِهِ، وَسَلَّطَ عَلَيْهِ حِزْبَهُ وَأَهْلَهُ بِأَنْوَاعِ التَّسْلِيطِ، وَهَذِهِ العقبة لَا حِيلَةَ لَهُ فِي التَّخَلُّصِ مِنْهَا، فَإِنَّهُ كُلَّمَا جَدَّ فِي الِاسْتِقَامَةِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، وَالْقِيَامِ لَهُ بِأَمْرِهِ، جَدَّ الْعَدُوُّ فِي إِغْرَاءِ السُّفَهَاءِ بِهِ، فَهُوَ فِي هَذِهِ الْعُقْبَةِ قَدْ لَبِسَ لَأْمَةَ الْحَرْبِ، وَأَخَذَ فِي مُحَارَبَةِ الْعَدُوِّ لِلَّهِ وَبِاللَّهِ ، فعبوديته فيها عبودية خواص العارفين ، وهي تسمى عبودية المراغمة ، ولا ينتبه لها إلا أولو البصائر التامة ، ولا شيء أحب إلى الله من مراغمة وليه لعدوه ، وإغاظته له ، وقد أشار سبحانه إلى هذه العبودية في مواضع من كتابه :

- أحدها قوله {ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة} سمى المهاجر الذي يهاجر إلى عبادة الله مراغما يراغم به عدو الله وعدوه ، والله يحب من وليه مراغمة عدوه ، وإغاظته ، كما قال تعالى {ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين} -فجعلهم في درجة الإحسان لإغاظتهم أعداءه!-.
- وقال تعالى في مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه {ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار} فمغايظة الكفار غاية محبوبة للرب مطلوبة له ، فموافقته فيها من كمال العبودية.
- وشرع النبي صلى الله عليه وسلم للمصلي إذا سها في صلاته سجدتين ، وقال (إن كانت صلاته تامة كانتا ترغمان أنف الشيطان) وفي رواية (ترغيما للشيطان) وسماها (المرغمتين) فمن تعبد الله بمراغمة عدوه ، فقد أخذ من الصديقية بسهم وافر ، وعلى قدر محبة العبد لربه وموالاته ومعاداته لعدوه يكون نصيبه من هذه المراغمة *ومن اسرار العارفين وخفي نواياهم في طلب العلم ما ذكره العلامة إبن جماعة في "تذكرة السامع والمتكلم"

بقوله [والعاقل يعلم أن ابرك الايام عليه يوم يزداد فيه فضيلة وعلما ويكسب عدوه من الجن والإنس كرباً وغماً] فهم مستحضرين في طلبهم للعلم انهم في مقام يغيظ أعداء الله من الجن والإنس وتشرق به حلوقهم! * .

- ولأجل هذه المراغمة حمد التبختر بين الصفين .
- والخيلاء والتبختر عند صدقة السر ، حيث لا يراه إلا الله ، لما في ذلك من إرغام العدو ، وبذل محبوبه من نفسه وماله لله عز وجل، وهذا باب من العبودية لا يعرفه إلا القليل من الناس ، ومن ذاق طعمه ولذته بكى على أيامه الأول ، وبالله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله.
- وصاحب هذا المقام إذا نظر إلى الشيطان ، ولاحظه في الذنب ، راغمه بالتوبة النصوح ، فأحدثت له هذه المراغمة عبودية أخرى، فهذه نبذة من بعض لطائف أسرار التوبة لا تستهزئ بها فلعلك لا تظفر بها في مصنف آخر البتة ، ولله الحمد والمنة ، وبه التوفيق] مدارج السالكين: ٢٣٨/١ .

المفتاح السابع .. (مراتب المخافين) !

{غير المغضوب عليهم ولا الضالين}

-الحكمة من وجود المخالفين-

لما كان أعظم مقصد من إيجاد الخلق هو العبادة كما قال تعالى {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}، وكان هناك من مراتب "العلم" و "التعبد" ما لا يبلغه المرء إلا بوجود الخصوم والمخالفين كان من حكمة الله ورحمته بعبادة المؤمنين تسليط الاعداء عليهم ليبلغوا من المراتب الإيمانية العالية ما اراده الله لهم فيفوزوا بشرف الدنيا وثواب الآخرة قال تعالى {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا} ف"هاديا" إشارة إلى مراتب العلم الإيمانية و"نصيرا" مراتب العمل، وقال عليه الصلاة والسلام في حديث (الطائفة المنصورة) الذي هو شرح ل{صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين}: [الآنَ جاء اللهُ بالقتالِ لا تزالُ طائفةٌ من أمتي ظاهرينَ على الناسِ يُزيغُ اللهُ بهم قلوبَ أقوامٍ فيُقاتلونهم ويرزقُهم اللهُ منهم حتى يأتيَ أمرُ اللهِ وهم على ذلكَ] وأعظم الرزق هو "الإيمان" الذي هو: العلم والعمل، وقد عقد الإمام إبن القيم وحمه الله تعالى فصلا طويلاً من كتابه "مفتاح دار السعادة" حري ان يكتب بماء العيون في (مشاهدة حكمة الله في أقضيته واقداره التي يجريها على عباده) ولولا خشية الإطالة لوضعته كاملا وكرهت ان أشوه حسنه بتمزيق بعض اجزائه ونقلها دون غيرها ! .

-العصمة مع المخالفين-

وهنا قضية خطيرة بها العصمة في باب الخصومات ومعاملة المخالفين: وذلك أن يعلم المرء أنه في ذلك كله متعبد لله -في الغلظة واللين- لا طالبا للمغالبة والمكاسب الشخصية!، وقد بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الحقيقة اعظم بيان في "القادسية" التي هي اكبر معاركهم مع الفرس المجوس حين بعصهم سعد بن ابي وقاص رضي الله عنه إلى رستم قبيل المعركة يدعونه إلى الإسلام فإرجع إلى خبرهم عند إبن كثير في البداية والنهاية وقف معه وقوف المعظم لهؤلاء الكبار المسترشد بسيرتهم.

-معرفة مراتب المخالفين-

ولما كان العلم سابق العمل وجب على العبد أن يتبصر بمراتب المخالفين وامر الله في اهل كل مرتبه :-

-المخالفين من اهل الإيمان-

قال شيخنا المربي عبدالرحمن الحجي متع الله به [للعبد في دين الله ثلاث مراتب "المسلم" و "المؤمن" و "الصالح"، والصالح هو الذي أصلح قلبه وأخرج منه الغل وله ثلاث مراتب فصلها ربنا عز وجل وهي: الصالح والصديق والشهيد والنبي، وكلهم يقال لهم مسلمين لان الإسلام لا حد له ففي كل مرة تقول (لا إله إلا الله محمد رسول الله) صادقا من قلبك فزنك تدخل في مرحلة جديدة من الإسلام حتى يتوفاك الله، وهذا إبراهيم عليه السلام أصلح الناس إسلاما {إذ قال له ربه أسلم قال اسلمت لرب العالمين} ومع ذلك إلى أن مات وهو يقول {وإجعلنا مسلمين لك}!.

ومراتب "الصلاح" الأربعة كلها تقوم على ما بينه رسول الله صلى الله عبيه وسلم بقوله [(الدين النصيحة -ثلاثلا-) قلنا لمن يا رسول الله؟ قال: (لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم)] رواه مسلم، وبحسب موتبة الهبد في ذلك تكون مرتبته في الصلاح :-

ف(النصيحة لله) ان تسلم له الخلق والتدبير والعبادة ولا يغل قلبك عليه في شيء من ذلك: فإن من الناس من يغل على ربه في هدايته وإضلاله لمن شاء، او مغفرته وعقابه كالخوارج والمرجئة، او يغل قلبه على قدره أو على شيء من شرعه ونحو ذلك.

و(النصيحة لرسوله) في إتباع سنته وان لا يغل قلبك علي شيء منها: ومن هنا فإن المبتدع لا يكون صالحا مهما بلغ إيمانه!، ولذلك لم يوجد في الصحابة مبتدع قط وذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم زكاهم واخرج مافي قلوبهم من غل فقد روى مسلم في صحيحه عن ابي هريرة رضي الله عنه قال [لَمَّا نَزَلَتْ علَى رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ {لِلَّهِ ما في السَّماواتِ وما في الأرْضِ وإنْ تُبْدُوا ما في أنْفُسِكُمْ أوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ به

اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشاءُ ويُعَذِّبُ مَن يَشاءُ واللَّهُ علَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ} قالَ: فاشْتَدَّ ذلكَ علَى أصْحابِ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، فأتَوْا رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ ثُمَّ بَرَكُوا علَى الرُّكَبِ، فقالوا: أيْ رَسولَ اللهِ، كُلِّفْنا مِنَ الأعْمالِ ما نُطِيقُ، الصَّلاةَ والصِّيامَ والْجِهادَ والصَّدَقَةَ، وقدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هذِه الآيَةُ ولا نُطِيقُها، قالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: أتُرِيدُونَ أنْ تَقُولوا كما قالَ أهْلُ الكِتابَيْنِ مِن قَبْلِكُمْ سَمِعْنا وعَصَيْنا؟ بَلْ قُولوا: سَمِعْنا وأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وإلَيْكَ المَصِيرُ، قالوا: سَمِعْنا وأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وإلَيْكَ المَصِيرُ، فَلَمَّا اقْتَرَأَها القَوْمُ، ذَلَّتْ بها ألْسِنَتُهُمْ، فأنْزَلَ اللَّهُ في إثْرِها: {آمَنَ الرَّسُولُ بما أُنْزِلَ إلَيْهِ مِن رَبِّهِ والْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ باللَّهِ ومَلائِكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بيْنَ أحَدٍ مِن رُسُلِهِ وقالُوا سَمِعْنا وأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وإلَيْكَ المَصِيرُ}، فَلَمَّا فَعَلُوا ذلكَ نَسَخَها اللَّهُ تَعالَى فأنْزَلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: {لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَها لها ما كَسَبَتْ وعليها ما اكْتَسَبَتْ رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إنْ نَسِينا أوْ أخْطَأْنا} قالَ: نَعَمْ {رَبَّنا ولا تَحْمِلْ عليْنا إصْرًا كما حَمَلْتَهُ علَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنا} قالَ: نَعَمْ {رَبَّنا ولا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لنا بهِ} قالَ: نَعَمْ {واعْفُ عَنَّا واغْفِرْ لنا وارْحَمْنا أنْتَ مَوْلانا فانْصُرْنا علَى القَوْمِ الكافِرِينَ} قالَ: نَعَمْ]، ثم الصحابة انفسهم تتفاوت مراتبهم في ذلك -النصح للرسل- ولذلك لما اخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم في احد الايام اصحابه خبرا إستعظموه قال لهم [فإني أؤمن بهذا انا وأبو بكر وعمر] ولم يكونا إذ ذاك متواجدين! لعلمه انهما اصح الناس قلوبا، ثم الصديق والفاروق رضي الله عنهما يتفاوتان فيما بينهما أيضا ففي صلح الحديبية غل قلب عمر على صلح رسول الله فضربه ابو بكر على صدره وقال (يا عمر الرجل يوحى إليه إلزم غرزه لا تهلك)!، وابو بكر رضي الله عنه لم يبلغ هذه المنزلة زلا بطول مجاهدك وتزكية للنفس فزنه رضي الله عنه مكث بين "إسلامه" ودخوله مراتب "الصديقية" عشر سنين يزكي فيها نفسه ويجاهدها حتى سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم ب(الصديق) ثم ما زال يترقى في درجات الصديقية في الغار وفي العريش يوم بدر وفي الحديبية حاى ثبت في حروب الردة وقام فيها مقام نبي! .

وكذلك (النصح لكتابه) فما من مبتدع وصاحب هوى إلا ويغل قلبه على بعض آياته وتثقل عليه حتى قال بعضهم عن آية في كتاب الله: وددت لو حككتها من المصحف! .

و (النصح لأئمة المسلمين وعامتهم) بتعظيم الأئمة: "العلماء" و "الامراء"، وحفظ جانبهم كما قال ميمون بن مهران (أبغني من الابدال وإعلم انه لا يكون منهم متماوتا ولا مبتدعا ولا طعانا على الأئمة) فكل من طعن في تراث الأمة وشوه تاريخها وحارب وبدل ثقافتها فقد غل قلبه على أئمة المسلمين وعامتهم وخرج بذلك عن رتبة الصالحين ولما رمى رجل بكتاب عند الإمام احمد غضب وقال (هكذا يفعل بكلام الابرار؟!) كشاف القناع.

وهذه الرتبة -الصلاح- هي غاية العباد ومطلوبهم فقد قال إبراهيم عليه السلام {رب هبلي حكما وألحقني بالصالحين} وقال يوسف {توفني مسلما وألحقني بالصالحين} وقال سليمان {رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ} وقال تعالى {الذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين}] إنتهى، وهذه المرتبة قد يخل بها البعض من حيث لا يشعر فيغل قلبه على ربه أو على رسوله أو على شيء من تراث امته وثقافتها وهو لا بربد بذلك شراً إنما لجهله وقصوره، وهذا ليس كمن يفعل ذلك عداوة للدين ونفاقا فإن الله غز وجل يقول في اهل الإيمان {ومنهم الصالحون ومنهم دون ذلك}، فهاؤلاء وإن قالوا ببعض قول اعداء الامة إلا أنهم ليسوا مثلهم في الإسم ولا في الحكم فقد فرق الله بينهم فقال {إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض} ف"الذين في قلوبهم مرض" هم من وقع في قلوبهم شبهة او شهوة من أهل الإيمان فلم يجعلهم الله كمن ابغض الحق وعاداه وظهر ذلك من سيرته من "أهل النفاق" وقصة سيدنا حاطب بن ابي بلتعة رضي الله عنه أصل في هذا الباب، فمن عرف عنه حبه للدين و ولاءه للامة وكانت له سابقة خير فإنه يغفر له إن زل مالا يغفر لغيره فقد قال عليه الصلاة والسلام [أقيلوا ذوي الهيئات

عثراتهم] وأبى الله ان يكون الكمال إلا له والعصمة إلا لرسوله والله المستعان .

-العدل به قوام الدين والدنيا-

قال الله تعالى {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَ الْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} ويقول {وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ} فالعدل به قوام "الدين" و "الدنيا" وكما يخل التطفيف بموازين الدنيا فكذلك يفعل بالدين!، والمؤمن كما يحب العدل مع أهل الإيمان فإنه يحبه مع مخالفيهم لأنه في ذلك كله متعبد لله طالبا مرضاته قال تعالى {ولا يجرمنكم شنآن قوم على ان تعدلوا إعدلوا هو اقرب للتقوى} شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عليه [وَالْخَوَارِجُ تُكَفِّرُ أَهْلَ الْجَمَاعَةِ، وَكَذَلِكَ أَكْثَرُ الْمُعْتَزِلَةِ يُكَفِّرُونَ مَنْ خَالَفَهُمْ وَكَذَلِكَ أَكْثَرُ الرَّافِضَةِ وَمَنْ لَمْ يُكَفِّرْ فُسِّقَ، وَكَذَلِكَ أَكْثَرُ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ يَبْتَدِعُونَ رَأْيًا، وَيُكَفِّرُونَ مَنْ خَالَفَهُمْ فِيهِ، وَأَهْلُ السُّنَّةِ يَتَّبِعُونَ الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمُ الَّذِي جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، وَلَا يُكَفِّرُونَ مَنْ خَالَفَهُمْ فِيهِ، بَلْ هُمْ أَعْلَمُ بِالْحَقِّ وَأَرْحَمُ بِالْخَلْقِ، كَمَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ الْمُسْلِمِينَ بِقَوْلِهِ: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: كُنْتُمْ خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ] «منهاج السنة النبوية» (5/ 158).

-الرحمة والعدل في موافقة الشرع-

وهنا قضية خطيرة في هذا الباب لابد من بيانها: وهي أن الرحمة كل الرحمة والعدل كل العدل فيما وافق الشرع!، وكثير من الناس إذا ذكر لهم الرحمة بالمخالف ظنوا أن ذلك لا يكون إلا بلين الجانب والتغاضي عن الإنحرافات وترك الإنكار والمفاصلة وهذا كله من تلبيس الشيطان على اوليائه فإن الرحمة بالمخالف تكون بالاخذ بأمر الله فيه من شدة أو لين، بحسب حاله ومرتبة مخالفته التي بينها الله عز وجل، وترك ذلك والأخذ

بأي منهج مخالف للشرع ظلم وإفساد سواءا أكان ميلا إلى الغلو او التفريط، قال الشيخ عبدالله بن الإمام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى [وبالجملة فيجب على من نصح نفسه ألا يتكلم في هذه المسألة إلا بعلم وبرهان من الله ، وليحذر من إخراج رجل من الإسلام بمجرد فهمه ، واستحسان عقله ، فإن إخراج رجل من الإسلام ، أو إدخاله فيه من أعظم أمور الدين -إلى أن قال- وقد استزل الشيطان أكثر الناس في هذه المسألة ، فقصر بطائفة فحكموا بإسلام من دلت نصوص الكتاب والسنة والإجماع على كفره ، وتعدى بآخرين فكفروا من حكم الكتاب والسنة مع الإجماع بأنه مسلم] الدرر السنية (217/8).

قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (1) إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (2) لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (3) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (4) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (5) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (6) عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (7) لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} ولنا مع هذه الآيات وقفات سريعة :-

١- كونها كشفت أن الأصل في اهل الباطل هو عداوتهم لاهل الإيمان -ما داموا متمسكين بإيمانهم- وإن أظهروا خلاف ذلك، والغفلة عن هذه الحقيقة هي التي أخرجت ابونا آدم من الجنة، وهي التي فتحت ابواب قلعة دمشق للتتار حين اقنع تيمورلنك إبن مفلح ومن معه من فقهاء دمشق بفتح الابواب وقال لهم [هذه بلدة الانبياء والصحابة قد اعتقتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم صدقة عني وعن اولادي، ولولا حنقي من سودون نائب دمشق عند قتله رسولي لما اتيتها وقد صار سودون المذكور في قبضتي وفي اسري، وقد كان الغرض من مجيئي إلى هنا ولم يبق لي الآن غرض إلا العودة ، ولكن لا بد من اخذ عادتي من التقدمة من الطقزات -وهي كلمة تركية والمراد أن تقدم له مائدة وهدايا علامة على إنتصاره-] واعطاهم كتاب فيه الأمان فلما فتحوا له بابها ودخل إليها إستباح الدماء والاموال والاعراض! .

٢- انها بينت ان المفاصلة بين الحق والباطل هي "ملة إبراهيم" التي أمرنا بإتباعها ولذلك سميت ب(الحنيفية) فإن الحنف هو الميل: أي الملة المائلة عن الباطل وأهله إلى الحق وأهله.

٣- انها بينت أن في ترك الإنكار للباطل وإجتنابه وأهله وإظهار البراءة منهم "فتنة" لهم لأن عدم مصادقتهم بالحق يبقيهم على ما هم عليه من الباطل!

٤- أنها بينت أن الصدع بالبراءة والمفاصلة بين اهل الحق والباطل والوضوح في ذلك يكون مآله إلى رجوعهم عن باطلهم فأخبر جل وعلا أنه سيجعل بيننا وبين الذين "عادينا" منهم مودة بأن يهديهم للحق والإيمان.

٥- ان إظهر البراءة حده: أن يعرف اهل الباطل انك لست منهم في شيء -كما فصلتها سورة الكافرون-، وليست البراءة بظلم المخالفين والمساواة بين من لم يعادي الحق (لم يقاتلوكم في الدين) ويعادي أهله (لم يخرجوكم من دياركم) وبين من عادى الحق واهله، فنضع كل إنسان في منزلته التي وضعه الله فيها مع إظهارنا البراءة من باطلهم واننا لا يمكن أن نجتمع معهم في شيء منه كما قال عليه الصلاة والسلام لابي طالب حين إستشفعته قريش إلى النبي ليسكت عن باطلهم [يا عمَّاهُ! واللهِ لَو وَضعوا

الشَّمسَ في يميني والقمرَ في شمالِي علَى أن أتركَ هذا الأمرَ حتَّى يُظهرَه اللهُ أو أهلِكَ فيه ما تركتُهُ] ، وقد نقل الذهبي عن ابي الوليد الباجي أنه كان مرة ماشيا مع شيخه إمام اهل السنة أبو الحسن الدارقطني فلقيهما إمام الأشعرية في زمانه أبو بكر الباقلاني فإلتزمه الدارقطني وقبل وجهه وعينيه فلما فارقاه قال الباجي: من هذا؟ فقال الدارقطني: هذا إمام المسلمين والذاب عن الدين أبو بكر محمد بن الخطيب! قال الذهبي [وهو الذي كان ببغداد يناظر عن السنة وطريقة الحديث بالجدل والبرهان، وبالحضرة رؤوس المعتزلة والرافضة والقدرية وألوان البدع، ولهم دولة وظهور بالدولة البويهية، وكان يرد على الكرامية، وينصر الحنابلة عليهم،وبينه وبين أهل الحديث عامر وإن كانوا قد يختلفون في مسائل دقيقة، فلهذا عامله الدارقطني بالاحترام] سير اعلام النبلاء (٥٥٨/١٧) مع كونه رحمه الله قد رد على الأشاعرة وأفرد في ذلك مصنفات جليلة ولكن {قد جعل الله لكل شيء قدرا} قال الذهبي [كان العلامة الحافظ أبو الحسن علي بن عمر -الدارقطني- نادرة العصر وفرد الجهابذة ختم به هذا الشأن، فمما صنف كتاب الرؤية وكتاب الصفات وكان إليه المنتهى في السنة ومذاهب السلف.

وهو القائل :

حديث الشفاعة في أحمد ... إلى أحمد المصطفى نسنده

وأما حديث بإقعاده ... على العرش أيضا فلا نجحده

أمروا الحديث على وجهه ... ولا تدخلوا فيه ما يفسده] العلو: ٢٣٤.

وفي الصحيحين عن العباس رضي الله عنه انه قيل: يا رسول الله هل نفعت ابو طالب بشيء فزنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال [نعم! هو في ضحضاح من النار ولولا انا لكان في الدرك الأسفل من النار] وقال [له نعلان من نار يغلي منهما دماغة] رواه مسلم وقد كان عليه الصلاة والسلام يتألف بعض المشركين الذين يرى منهم ميلا للإسلام ببذله شيئا من الدنيا لهم مع إظهارة البراءة منهم ومن شركهم من اول يوم بعث فيه حين قال (إني نذير لكم بين يدي عذاب أليم) فكان اول ما سمعوه منه

انهم إن ماتوا على ما هم عليه كانت النار مصيرهم ولهم فيها عذاب أليم !
.

والمقصود أن كلامنا عن مراتب أهل الباطل وتفاوتها لا يفهم منه الإخلال بالشرع والتلاعب به والركون إليهم في باطلهم ولو شيئا قليلا كترك التسميات الشرعية على سبيل المثال وإستبدالها بأسماء محدثة -سنة إبليس!- فإننا لم نخلق إلا لعبادة الله لا لإرضاء الناس قال إبن حزم رحمه الله [لا نسمي في الشريعة اسماً إلا بأن يأمرنا الله تعالى بأن نسميه أو يبيح لنا الله بالنص بأن نسميه ، لأننا لا ندري مراد الله عز وجل منا إلا بوحي وارد من عنده علينا. ومع هذا فإن الله عز وجل يقول منكراً لمن سمى في الشريعة شيئا بغير اذنه عز وجل {إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى أم للإنسان ما تمنى} وقال تعالى {وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا} فصح أنه لا تسمية مباحة لملك ولا لإنس دون الله تعالى، ومن خالف هذا فقد افترى على الله عز وجل الكذب وخالف القرآن ، فنحن لا نسمي مؤمنا إلا من سماه الله عز وجل مؤمنا ، ولا نسقط الإيمان بعد وجوبه إلا عمن أسقطه الله عز وجل عنه] الفصل في الملل والأهواء والنحل (191/3) .

-معرفة الحدود-

وهذا الامر لا يمكن الوصول إليه إلا بمعرفة الحدود وضبطها وتمييزها فإن الله عز وجل عندما ذم الجفاة وأهل الجهالة وبين سبب إنحرافهم قال {الاعراب اشد كفرا ونفاقا واجدر ألا يعلموا حدود ما انزل الله}، فجهلهم بحدود المسائل الشرعية وتمييز بعضها عن بعض وإضطرابها عندهم وعدم معرفتهم بمراتب الأشياء في دين الله هو سبب إنحرافهم وكفرهم ونفاقهم!

وحقيقة "الفقه" هي ضبط هذه الحدود، فالفقيه هو الذي يعرف (امر الله) الموافق (حاله) التي هو عليها .

خاتمة ..

أما بعد ، فقد رأينا أن مقاصد سورة الفاتحة سبعة :-

1- {بسم الله الرحمن الرحيم} تعريف الناس بربهم وذلك من خلال بيان أسماءه وصفاته .
2- {الحمد لله رب العالمين} إظهار آثار هذه الأسماء والصفات في الوجود وبناء العمل -في أمور الدين والدنيا- عليها .

3- {مالك يوم الدين} ذكر ما أعد الله لأهل طاعته: الذين عرفوا أسماءه وصفاته فحققوا)بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ(وعملوا بمقتضاها فحققوا)الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(، وما أعده لأهل معصيته -المبتدعة والمشركين-: الذين جهلوا أسماءه وصفاته وخالفوا مقتضاها .

4- {إياك نعبد وإياك نستعين} بيان "المنهج" الذي من تمسك به فقد "حقق" التوحيد على جهة الكمال: ف{إياك نعبد} فيها البراءة من الشرك وأهله {وإياك نستعين} فيها البراءة من البدع وأهلها .

5- {إهدنا الصراط المستقيم} بيان الحق -الشريعة- في نفسه .

6- ثم إنزاله على الواقع -لتحقيق الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان- بذكر أهله {صراط الذين انعمت عليهم}.

7- وذكر أعدائه ومخالفيه وبيان أصنافهم وأحوالهم وما يجب على أهل الإيمان تجاه كل صنف منهم {غير المغضوب عليهم ولا الضالين}.

فهذه سبعة [مفاتيح] حولها يدور القرآن كله !!